بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٣٦ ـ جمادى الأولى ١٤٣١هجرية قمرية

اردیبهشت ١٣٨٩هجرية شمسية / مايس (ايار) ٢٠١٠

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

فاكس: ٨٨٣٢١٦١٦ ٩٨٢١ + هاتف: ٨٨٣٢١٤١١ ٩٨٢١ +

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ١٥٨٧٥-٦٩٩٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الموقع: www.taghrib.ir

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل
الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.iranarab.com

منهجنا في نشر المقالات

١. أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣. يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤ ـ ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥ ـ المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٣٦

الدين في المفهوم القرآني/محمد حسين الطباطبائي..... ٤

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي ١٠

إحياء الإحيائيين/ محمد علي التسخيري ٢٤

الهجرة والتعارف..... ٢٧

الحوار الثقافي الإيراني – العربي في العصر العباسي الأول..... ٣٦

الأديان الحديثان العربي والفارسي مقاربة في الظواهر المشتركة /١ ..... ٤٤

الشيخ محمد تقي القمي / عبدالكريم بي آزار شيرازي..... ٥٧

منهج سيد قطب في وحدة المسلمين/ محمد الدسوقي..... ٧٠

حول كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة أسد حيدر/حامد حفني داود ٨٤

كلمة الشيخ عبدالمجيد سليم بعد توليه منصب مشيخة الأزهر ٩٢

التخلف الاقتصادي في العالم الإسلامي ٩٧

الإمام حسن البنا والشيخ الغزالي ولمّ شمل المسلمين ١١٠

عِشْ بالشُّعورِ، وللشُّعورِ / أبو القاسم الشابي ١١٩

الدين في المفهوم القرآني

محمد حسين الطباطبائي*

• طواغيت الانحراف جعلوا أفراد المجتمع المسلم يتخبطون في دائرة ذاتياتهم • التفكير الإسلامي أصبح خاضعًا لإرادة السلطان • حين تتحول الدراسات القرآنية إلى جدل لفظي عقائدي عندئذ يطمئن ولاة الأمور على استمرار وجودهم • أول درس لقنته أوربا لأبناء المسلمين التشكيك في قيمهم وأفكارهم وعقائدهم • أوربا عريقة في ماديتها من جهة ولها ذكريات مرة مع الكنيسة من جهة أخرى • الدين وضع منهج تلبية احتياجات الإنسان طبقًا لموازين عادلة ثابتة.

إن الانحراف الذي عصف بالرسالة الإسلامية في مراحلها الأولى أبعد المسلمين عن ممارستهم العملية لمفاهيم القرآن الكريم. فالأسس التي وضعها القرآن للتكامل الاجتماعي والفردي قد غابت عن ذهنية الإنسان المسلم بفعل طواغيت الانحراف، وأضحى أفراد المجتمع الإسلامي يتخبطون في النطاق الضيق لذاتياتهم.

* - العلامة الكبير، صاحب تفسير «الميزان».

ولم تمرّ فترة طويلة حتى تحكمت في رقاب المسلمين فئة صادرت الحريات وعبثت بمقدرات الأفراد.. وعاد كل شيء خاضعًا لإرادة السلطان.. حتى التفكير الإسلامي أصبح خاضعًا لمخطط الشل والإخصاء، وكان ذلك طبيعيًا، اذ لو عاش المجتمع أفكار القرآن الحقيقية، لما عاد للطاغوت وجود، فلابد إذن أن تتحول الدراسات القرآنية إلى جدل لفظي وعقائدي خاو فارغ من أي مضمون كي يطمئن ولاة الأمور على استمرار وجودهم.

وظل المجتمع الإسلامي يعيش انحطاطًا روحيًا وفكريًا ومكث أبناؤه يرسفون تحت قيود الرقابات الفكرية حتى طلع عليهم البشير الغربي.

دخلت أوربا إلى العالم الإسلامي وهي مجهزة بكل وسائل الاستعباد والاستعمار، وكان أول درس لقنته لأبناء المسلمين يحمل التشكيك في كل القيم والأفكار والعقائد السائدة بينهم. لقد أوحت لهم أن الفكر الأوربي وطريقة الحياة الأوربية هي الطريقة المثلى التي ينبغي أن تتبع إن شاؤوا لأنفسهم الرقي والتقدّم.

ولم يكن المجتمع الإسلامي يحمل مقومات الصمود والمقاومة أمام هذه الإيحاءات وتلك المغريات، فانهار أمامها، وأضحى المثقفون والمتنفذون يلهجون بما لقنتهم به أوربا. بدأوا يرددون مسألة التناقض بين الدين والعلم ومسألة الصراع بين تطور المجتمع والقيم الدينية.. ولقد وصل هذا الاستسلام إلى حد بدأ فيه أبناء

المسلمين يتلقون عن الأوربيين نظرتهم عن الدين والإسلام، والتاريخ الإسلامي والفكر الإسلامي.

وكان من الطبيعي أن يحمل الفكر الأوربي نظرة سلبية متشائمة عن الدين وقيمه وأفكاره. إذ أن أوربا عريقة في ماديتها من جهة، ولها ذكريات مرة مع الكنيسة واضطهادها الفكري ومحاكم تفتيشها من جهة أخرى، ومن هنا فإنها راحت تفسر التفكير الديني بأنه وليد جهل الإنسان بعلل الظواهر التي يشاهدها.

لقد جاء البشير الأوربي يقول إن الإنسان حينما كان يجهل علل الحوادث الطبيعية فإنه أرجعها إلى مصدر غيبي سمّاه «اللّه»، أما الآن فقد اكتشف العلم كل شيء، وما عاد للسبب الغيبي أي معنى.

وعلى هذا فلا يمكن للدين أن يحتل أية مكانة في المجتمع سوى ما تعلق بالمراسيم والطقوس التي لا أثر لها في سير الحياة الاجتماعية.

أما الفهم القرآني للدين فيختلف عن هذه النظرة تمامًا، ويسلك القرآن لتحديد معنى الدين طريقًا آخر يتدرج على الشكل التالي:

١ – إن الفطرة الإنسانية السليمة تحكم بأن كل ما في الكون خاضع لقانون العلية، فلا يمكن أن نتصور ظاهرة لم يكن لها وجود في الكون ثم وجوت دونما علة وسبب.

٢ - من هذا القانون الكوني العام نستنتج أن أجزاء الكون كلها مترابطة وذات تأثير متبادل بعضها بالبعض الآخر. ولقد أثبت العلم أيضا أن حركة جميع الموجودات بما فيها الذرات بل أجزاء الذرات خاضعة لما يحيطها من موجودات.

٣ -والإنسان كظاهرة كونية يرتبط في وجوده بسائر موجودات الكون، وتتدخل في إيجاده عوامل لا حد لها ولا حصر تخضع كلها لإرادة ربّ العالمين.

من هذه المقدمات الثلاث نستنتج ما يلي:

أ. لا معنى للصراع ضد الطبيعة، إذ إن استخدام القوانين التي تتحكم في الكون لصالح الإنسان لا يعني بأي شكل من الاشكال التمرد على الطبيعة. بل يعني اكتشاف الطريق الأفضل لحياة الإنسان عن طريق الاستفادة من القوانين الطبيعية.

ب ـ إن الإنسان كسائر الظواهر الكونية يخضع إلى الجهاز المهيمن على هذا الكون، هذا الجهاز الذي يسيّر كل موجودات الكون في طريق كمالها ورقيها.

ج ـ إن أية ظاهرة في الكون بما فيها الإنسان تستطيع أن تسلك طريق تكاملها ورقيّها إن طوت مسيرة القوانين الطبيعية، وعند ذلك تكون كل القوانين الكونية مساعدة لهذه الظاهرة في شقّ طريق تكاملها. وإن شاءت هذه الظاهرة أن تتمرّد وتعرض عن القانون الكوني العام فإنها إما أن تنحرف عن مسيرها الطبيعي أو تفنى وتتحطم.

د- القرآن الكريم يؤكد على أن الحياة الإنسانية لا تفنى بموت الإنسان في الدنيا بل أنها خالدة.

ومن هنا فإن الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الإنسان - في نظر القرآن - هو الطريق الذي يضمن له سعادة الدنيا والآخرة، وهذا الطريق يتحدد اتجاهه تبعًا للقانون الكوني العام الذي يتحكم في جميع الموجودات بما فيها الإنسان ويطلق القرآن على هذا الطريق اسم «دين».

مما تقدم يتضح أن مفهوم القرآن عن الدين يتحدد بأنه المنهج الحياتي الذي يوفر للإنسان ــ إن اتبع هذا المنهج ــ السعادة الحقيقة، لكن هذه السعادة لا تقتصر على الحياة الدنيوية، بل إنها تشمل سعادة الدنيا والآخرة إذ لا فصل في رأي القرآن بين الناحية الدنيوية والأخروية.

واتضح أيضًا أن الدين يستمد المنهج الذي يعينه للإنسان من جواز الطبيعة والخلقة، لا من عواطف الإنسان وأهوائه.

أي إن الدين خط الطريق اللازم لرفع الاحتياجات الفطرية للإنسان طبق موازين عادلة ثابتة. والإنسان نفسه إن ابتعد عن أهوائه وأغراضه الشخصية وحاول أن يكتشف احتياجاته وميوله الحقيقة فإنه سوف لا يحيد عن الالتزام بما أمر به الدين لتلبية تلك الاحتياجات الواقعية الحقيقية.

وبعبارة أخرى فإن المنهج الذي يريده القرآن للمجتمع الإنساني يستند إلى الحق والواقع لا إلى الأهواء البشرية التي تبعد الإنسان

عادة عن تشخيص المنفعة والضرر الحقيقيين.

إن المجتمعات المنسلخة عن منهج الدين ترضخ لإرادة فرد أو أفراد متعددين ولا وزن لمتطلبات الأفراد ولا قيمة لها.

وحتى المجتمعات الديمقراطية فإن إرادة (نصف الأفراد +١) هي التي ينبغي أن تسود، وفي هذه الحالة لابد أن تصادر وتلغى إرادة بقية الأفراد الذين هم (النصف ـ ١).

أما منهج الدين فينطلق من تلبية إرادة جميع الأفراد واحدًا واحدًا دونما إجحاف بإرادة أي فرد.

وكما قلنا فإن الإرادة الإنسانية والرغبة البشرية التي يهدف الدين إلى تلبيتها ـ في نظر القرآن ـ هي الإرادة والرغبة الحقيقيان اللذان ينبعان من فطرة الإنسان وتكوينه.

ان إطار هذا البحث واسع جدًا ونكتفي بهذا التلميح عسى أن نكون قد وفينا الموضوع بعض حقه.

ولا شك في أن موجة توأمة الإرهاب والإسلام وراءها هدف استراتيجي هو تمهيد الجو لقمع الهوية الإسلامية وسحق كرامة المسلمين، فليس من المعقول أبداً أن يكون محركو هذه الموجة واهمين، بل إنهم عموماً يعون ما يقولون. ويبدو من أقوالهم بوضوح تركيزهم على إثارة الرأي العام الأوروبي ضد المسلمين.

وقفات عند فكر
الإمام الخامنئي

• لا بدّ أن نتناول مسألة الحرية في إطار فكري مستقل • الحرية حقّ إنساني في التفكير والتعبير والانتخاب • لا نحتاج إلى نبحث عن الحرية في الليبرالية الأوربية بل نبحث عنها في قرآننا الكريم • الغربيون يواجهون مشكلة في إعطاء مفهوم فلسفي عن الحرية • الاستفادة من فكر الآخر شيء والتقليد شيء آخر • في التفكير الإسلامي النضال من أجل الحرية هو نفسه مسؤولية • الحرية في المفهوم الإسلامي تشكل الوجه الأخر للتكليف.

مسألتان في قضية الحرية

ثمة مسألتان في قضية «الحرية». وهذه القضية يروج الحديث عنها اليوم في الصحافة وبين أصحاب الأقلام، وهي ظاهرة مباركة.

أن تطرح الأفكار والآراء بشأن المسائل الأصولية والأساسية للثورة وتتحرك الأفكار والأقلام لتدلي بدلوها أمرٌ كنّا نتوق إليه دومًا، وكان موجودًا بدرجة وأخرى بشأن مختلف المقولات، وهذه الظاهرة، موجودة اليوم أيضًا، وأنا أتابع إلى حدّ كبير ما يكتب

وما يقال، وأستفيد من بعض ما يكتب ويقال. والآراء متضاربة، أي لا تنحو الكتابات منحى واحدًا، ثمة نظرات متباينة. وفي جانبي التخالف يُرى كلام حق وصحيح، واستمرار هذه المناقشات مفيد أيضًا. وليت كل أصحاب الأقلام هبّوا لتناول المسائل الأساسية في الصحافة، لينتشلوا الصحافة من حالة الضحالة، ويدفعوها إلى إثارة موضوعات تبعث على التأمل والإرشاد. نحن نوصي دائمًا بضرورة تعميق ثقافة الثورة، وعملية التعميق تتطلب هذه المناقشات الفكرية.

الأولى: الاستقلال الفكري

إحدى المسألتين اللتين أردت الحديث عنهما في مفهوم الحرية، هي أننا يجب أن نراعي الاستقلال – وهو واحد آخر من شعاراتنا – في حديثنا عن الحرية. أي أن نفكر تفكيرًا مستقلاً لا تقليديًا تبعيًا. لو أننا في هذه المسألة التي هي أساس كثير من مسائلنا قد قلدنا الآخرين، وفتحنا أعيننا فقط على نافذة الفكر الغربي، فإننا نكون قد ارتكبنا خطأ جسيمًا، وجنينا ثمرًا مرّا.

في البداية أذكر أن مسألة «الحرية» من المقولات التي أكد عليها القرآن الكريم ونصوص الحديث النبوي وكلام أئمة أهل البيت(عليهم السلام) مرارًا.

طبعا المقصود من حديثنا عن الحرية ليس هو الحرية المطلقة، إذ لا يوجد لمثل هذه الحرية مدافع في العالم. لا أظن أن أحدًا يدعو

إلى الحرية المطلقة في العالم. وليس المراد أيضًا الحرية المعنوية الموجودة في الإسلام وخاصة في المستويات الرفيعة للمعارف الإسلامية، ليس هذا محلّ بحثنا، الحرية المعنوية يؤمن بها كل من يعتقد بالمعنويات، وليست موضع ردّ وقبول. المقصود من «الحرية» التي نتناولها في حديثنا هو «الحرية الاجتماعية» .. الحرية باعتبارها حقًا إنسانيًا في التفكير والتعبير والانتخاب وأمثال ذلك. هذه المقولة ذكرتها نصوص القرآن والسنة بتجليل. يقول سبحانه في الآية ١٥٧ من سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

فالله سبحانه يذكر أحد خصائص نبيّه الكريم بأنه يضع عن الناس «**الإصر**» و«**الأغلال**»، والإصر يشمل العقائد الباطلة والخرافية، والقيود الاجتماعية الخاطئة التي فرضها الاستبداد أو التحريف أو التحميق على الناس. و«الأغلال» معناها معروف...

«**الحرية الاجتماعية**» بمعناها الموجود في القاموس السياسي اليوم لها جذورها في القرآن الكريم. من هنا لا نحتاج إلى مراجعة الليبرالية الأوربية في القرن الثامن عشر، ونلهث وراء ما يقوله «كانت» و«جون استيوارت ميل» وآخرون. نحن لنا كلمتنا ولنا منطقنا. سوف أذكر أن أقوال الغربيين لا تجدينا نفعا. اعتبروا مقولة «الحرية» مقولة إسلامية.

تحرك يتعارض مع أسلمة الحريّة

أعتقد أن ثمة مجموعتين تتحركان خلاف أسلمة «الحرية» وأصالتها الثقافية.

مجموعة تلهج في حديثها عن الحرية بأسماء فلاسفة القرون الأخيرة الغربيين وتستشهد بأقوالهم، قال فلان وقال فلان. طبعًا هؤلاء هم الشرفاء من هذه المجموعة، وثمة آخرون من هؤلاء المتفلسفين الصحفيين من ينتحل أقوال هؤلاء الفلاسفة الفرنسيين أو الألمانيين أو الأمريكيين دون أن يذكروا أسماءهم. هؤلاء يزوّرون ويساهمون أيضًا في إشاعة جوّ يجعل فكرة الحرية ومفهوم الحرية الاجتماعية، فكرة غربية، وهدية جاءتنا من الغرب.

ومجموعة أخرى تساعد تلك الأولى من حيث لا تدري، وهي أولئك الذين ما إن سمعوا حديثًا عن مفهوم الحرية حتى استولى عليهم الرعب والخوف ورفعوا عقيرتهم بـ«وادياه»!! لا، ليس الأمر كذلك. الدين أكبر مناد للحرية. لماذا الخوف على الدين من الحرية؟! الحرية الصحيحة.. الحرية المعقولة أهم معطيات الدين لشعب من الشعوب ولمجتمع من المجتمعات. ببركة الحرية تتضج الأفكار وتتفتح المواهب. الاستبداد ضد الموهبة، أينما حلّ الاستبداد انعدم تفتح المواهب. الإسلام ينشد تفجير طاقات البشر. الطاقات البشرية العظيمة – مثل الطاقات الطبيعية المخزونة – يجب استخراجها لتستطيع عمار الأرض. وهل يمكن أن يتحقق

ذلك دونما حرية؟! هل يمكن ذلك بالأمر والنهي؟! تفكير هذه المجموعة إذن خاطئ أيضًا.

هاتان المجموعتان - ولنسميهما المتغربين والمحتاطين - متعاونتان من حيث لا تعلمان، لإخراج مفهوم «الحرية» من الدائرة الإسلامية، بينما الأمر ليس كذلك، ومفهوم «الحرية» مفهوم إسلامي.

ولابد أن أذكر هنا أن هذه الحرية المذكورة.. الحرية الاجتماعية لها في الإسلام مكانة تفوق مكانتها في المدارس الغربية.

هيجة باسم الليبرالية

الليبرالية لها معان عديدة طبعًا. منذ أن بدأت النهضة الأوربية وانتشر الفكر الليبرالي في فرنسا وأوربا ثم في أرجاء العالم، وأدّى إلى نشوب الثورة الفرنسية، ثم استُخدم بشكله المنحرف في حروب الاستقلال الأمريكية، وظهر الميثاق الأمريكي وحتى الآن ظهرت عشرات التفاسير لليبرالية. وفي السنوات الأخيرة بشكل خاص المنظّرون أو الإيديولوجيون الأمريكيون يواصلون الكتابة بكثافة في هذا المجال.

وأضيف هنا أن كثيرًا من هؤلاء المفكرين ليسوا بأمريكيين، هؤلاء يكتبون بإشارة من الأجهزة الأمريكية في هذا المجال خاصة في حقل الليبرالية. ربما تؤلف كتبهم في النمسا

أو ألمانيا أو فرنسا لكنها تطبع في نيويورك، الطلب أمريكي والأهداف أمريكية، وهذا أيضًا حديث ذو شجون. وأمام كل هذه التيارات الغربية تحتل النظرة الإسلامية مكانة شامخة في فهمها للحرية.

هؤلاء الغربيون يواجهون مشكلة في إعطاء مضمون فلسفي للحرية. ما هي فلسفة الحرية؟ ما هي ضرورة الحرية للبشر؟ هذه الأسئلة تحتاج إلى استدلال فلسفي. قيل الكثير في هذا المجال، قيل إن جذور الحرية تمتد إلى مفهوم الفائدة، وقيل الخير الجماعي، وقيل اللذة الجماعية، واللذة الفردية، وأكثر ما قيل أنها حق من الحقوق المدنية. كل واحد من هذه التفاسير قابل للنقض ، وهم أوردوا عليها النقض أيضًا.

لو نظرتم إلى ما نشر خلال السنوات الأخيرة من كتابات حول مقولة الليبرالية لعلمتم الحجم الهائل مما قيل من كلام في هذا المجال، ومعظمه مضيعة للوقت وعديم الفائدة وشبيه بجدل القرون الوسطى. هذا يدلي بدلوه، وذاك يجيب عليه، ثم يردّ هذا على الجواب، ويشكل بأجمعه ترفًا فكريًا لمثقفي العالم الثالث!! منهم من يؤيد هذه النظرية ومنهم من يؤيد تلك، هذا يكتب شرحًا على استدلال، وذلك يكتب حاشية على شرح، وآخر يتقمص هذه النظرية، وينسبها لنفسه وهكذا!!

ذروة ما ذكر في هذا القيل والقال أن الحق الإنساني يشكل فلسفة الحرية ومنشأها. الإسلام قال أكثر من ذلك. قال: **إن**

الحرية أمر فطري في الإنسان كما ورد في النص المذكور. نعم إنها حق، لكنه حق يفوق سائر الحقوق. إنها مثل حق الحياة وحق المعيشة. وكما أن حق الحياة لا يمكن أن يكون مرادفًا لحق المسكن والانتخاب و... أمثالها، بل هو أساس لهذه جميعًا، كذلك الحرية، هذا هو رأي الإسلام.

طبعًا، هناك استثناءات، يمكن سلب هذا الحق في مواضع معينة، تمامًا مثل حق الحياة، فالقصاص ينزل بالقاتل والمفسد كذلك حق الحرية، غير أن هذا استثناء. هذا رأي الإسلام. من هنا فمن الخطأ أن تتصوروا أن الحرية الاجتماعية فكرة أهداها إلينا الغرب.. وكلما أردنا إلقاء حديث حلو جذّاب عن الغرب نقحم في حديثنا أسماء مفكرين وكتب للغربيين، لا، لابد أن نكون مستقلين في فكرنا، لابد من الرجوع إلى مصادرنا ومفاهيمنا.

الإنسان يمكن أن يستفيد من فكر الآخرين ليوسّع مداركه ويدعم نظرته، لا أن يقلّد. الانغماس في التقليد له أضرار ما بعدها أضرار...

المنطق الإسلامي والغربي

وهنا أذكر بعض الفروق الأساسية بين الحرية في منطق الإسلام والحرية في المنطق الغربي. ذكرت أن الليبرالية حصيلة كل ما في هذه المدرسة من نظريات وتيارات. وقد يكون بين

بعض النظريات والتيارات اختلاف في بعض الآراء، لكنها تجتمع في هذه الحصيلة.

في المدرسة الغربية الليبرالية، حرية الإنسان تخلو من حقيقة تسمى بـ«الدين» و«اللّه». لذلك لا يرون أن الحرية لها سند من الموهبة الإلهية. لا يقول أحد منهم أن الحرية هبة اللّه للإنسان، يبحثون لها عن منشأ وتفسير فلسفي آخر كما ذكرت. قدموا تفاسير فلسفية عديدة لمنشأ الحرية، وفي الإسلام «الحرية» لها جذور إلهية. هذا بنفسه تباين أساسي، ومنشأ كثير من ألوان التباين الأخرى.

من هنا فان **الحركة ضد الحرية - في منطق الإسلام - حركة ضد ظاهرة إلهية**، أي إنها توجد في الطرف المقابل مسؤولية دينية. لكن الأمر في الغرب ليس كذلك. من هنا فان النضال الاجتماعي المشهود في الساحة العالمية لا يقوم على أساس منطقي بناءً على التفكير الليبرالي الغربي، وإذا كانت جذور الحرية هي «الخير العام» أو «خير الأكثرية» مثلا، فلماذا التضحية بالنفس من أجل خير الأكثرية؟! هذا غير معقول وغير منطقي. طبعا الهيجان الموقت والآني قد يدفع الكثيرين إلى ميدان الصراع الدامي، لكن هذه الهيجة ما إن تزول حتى يعود الشك إلى كل أولئك الذين ناضلوا تحت لواء تلك الأفكار ويسألون أنفسهم : لماذا التضحية بالنفس؟!

في التفكير الإسلامي، ليس الأمر كذلك، النضال من أجل الحرية هو نفسه مسؤولية. لأنه نضال من أجل أمر إلهي. كما لو

أنكم رأيتم إنسانًا يتهدده القتل، فأنتم مسؤولون عن مساعدته، هذا واجب ديني، لو قصّرتم فيه لأذنبتم. وهكذا في مجال الحرية، لابد من الاقتحام للدفاع عنها، فهو واجب ومسؤولية.

وعلى هذا التباين الأساسي تترتب ألوان التباين الأخرى.

أحدها – أن الحرية في المدرسة الليبرالية الغربية غير محدودة، لأن الحقيقة والقيم الأخلاقية فيها نسبية. لا يمكنك الاعتراض على من ينتهك ما تؤمن به أنت من قيم أخلاقية، لأنه قد لا يكون مؤمنا بهذه القيم. من هنا فليس ثمة حدود للحرية. أي لا تحدها حدود معنوية وأخلاقية، لأنه لا توجد في المنطق الليبرالي حقائق وقيم ثابتة، فكلها نسبية.

و«الحرية» في الإسلام ليست كذلك، ففي الإسلام قيم ثابتة وحقائق مسلّمة. وإنما الكمال في الحركة نحو هذه الحقيقة، من هنا فان الحرية محدودة بهذه القيم..

هذه «الحرية الاجتماعية» بكل مالها من قيمة في الإسلام، تصبح مضرّة لو استخدمت في إضاعة المعطيات المعنوية أو المادية لشعب من الشعوب. تمامًا مثل حياة الإنسان: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. في منطق القرآن قتل الإنسان بمثابة قتل الإنسانية. وهذا مفهوم مدهش. من عمد إلى قتل إنسان فكأنه عمد إلى قتل كل الإنسانية، لأنه اعتداء على حريم الإنسانية. ولكن فيه استثناء: ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾. إي إلا أن يكون الشخص الذي يُعمد إلى قتله قد قتل إنسانًا أو

ارتكب في الأرض فسادًا. انظروا كيف أن القيم والحقائق الثابتة الحتمية تحدّ من هذه الحرية، كما أنها تحدّ من حقّ الحياة.

والفرق الآخر أن الحرية في الغرب تحدّها المصالح المادية. وضعوا أولا للحريات الاجتماعية والفردية حدودًا، وهذا أحدها. حين تتعرض المصالح المادية للخطر فإن الحرية تقف عند حدّها. ومن هذه المصالح الماديّة مثلا التفوّق العلمي والسيطرة العلمية.

فالحرية تفرض فتح باب العلم لكل من يريد أن يتلقاه، لكن هذه الحريّة تُحَدّ في الجامعات الغربية، ويُفرض حظرٌ على نقل العلوم والتقنية المتطورة التي يسمونها. HIGH TIC، لأنها لو انتقلت فسوف تخرج من احتكار أصحابها، ويفقد أصحابها بذلك هيمنتهم المادية. فالحرية تحدّدت هنا، ولا يحق للأستاذ أن يعلّم طالب العالم الثالث الإيراني مثلا أو الصيني المنطقةَ المحظورة من العلوم.

حرية انتقال المعلومات والأخبار هي أيضًا كذلك. ثمة هيجة في العالم اليوم بشأن حرية المعلومات والأخبار . يقولون دعوا الناس يسمعون ، دعوهم يعلمون. هذه إحدى المحاور التي يركز عليها الغرب في موضوع الحرية. ولكننا رأينا أيام الهجوم الأمريكي على العراق، في عهد رئاسة بوش، حظرًا رسميًا كاملاً على كل أخبار الهجوم، وفخروا بقدرتهم على فرض هذا الحظر. قالوا: يمنع المراسلون من التقاط صورة أو إرسال خبر عن الهجوم الأمريكي على العراق. خبر الهجوم سمعه الجميع، الأمريكيون أنفسهم أعلنوا الخبر، لكن التفاصيل بقيت محظورة ، مدعين

بـأن إذاعـة التفاصـيل يعـرّض عمليـة الهجـوم للخطـر. إذن الأمـن العسـكري قد حدّ من حقّ الحرية، وهو من الحدود الماديّة.

اسـتتباب السـلطة حـدّ آخـر. قبـل سـنوات ظهـرت مجموعـة في أمريكـا ذاع خبرهـا في الأعـلام وأنـا اطلعـت علـى تفاصـيل أكثـر ممـا نُشـر، وهـذه المجموعـة تبنـت اتجاهًـا دينيًـا خاصًـا مضـادًا للحكومـة الأمريكيـة القائمـة في عهـد كلنتون. جـرت محـاولات لاختـراق هـذه الجماعـة فلـم تفلـح، فحاصـروا البيـت الـذي كـان تتحصن فيـه هـذه الجماعـة وأحرقـوه علـى مـن فيـه مـن النـاس وبلـغ عـددهم حـوالي الثمـانين، ونشـروا صـور الأجسـاد المحروقـة وشاهدها الناس بأم أعينهم، وكان بينهم النساء والأطفال، وقد لا يكـون بينهم عسـكريًا واحـدًا. انظـروا، حريـة الحيـاة، وحريـة العقيدة، وحرية النضـال السياسـي تقـف عنـد هـذا الحـد، مـن هنـا فإن الحرية في الغرب لها حدود أيضًا لكنها حدود مادية.

القيم الأخلاقية هناك لا تشكل حدًا للحرية. على سـبيل المثال حركـة الشـذوذ الجنسـي في أمريكـا مـن الحركـات الرائجـة، ويتفـاخر أصـحابها ويتظـاهرون ، وينشـرون صـورهم في المجـلات، ويتبـاهون بـأن الشخصـية الفلانيـة ورجـل السياسـة الفلانـي مـن أعضـاء هـذه الحركـة. لا تـرى للخجـل أثـرًا عليهم، ولا يـأبي أحـد منهم أن يعرفه الجميـع. وأكثـر مـن ذلـك إذا تعـرض لهـم أحـد فإنـه يواجـه أعنـف الهجـوم في الصـحافة، ويوصـم بأنـه عـدو لحريـة هـذه الجماعة. فالقيم الأخلاقية لا تُعدّ حدًا للحرية أبدًا.

ومثال آخـر مـن البلـدان الأوربيـة. الدعايـة لصـالح الفاشـية تحـدّ

حرية التعبير. وهو أمر مادّي وحكومي. لكن دعاية التعرّي – وهي حركة أيضًا – لا تشكل حدًا. أي إن حدود الحرية في الليبرالية الغربية، بتلك الفلسفة وبتلك الجذور الفلسفية وبتلك النظرة، حدود مادية، لا حدود أخلاقية . ولكن في الإسلام توجد حدود أخلاقية. في الإسلام – إضافة إلى الحدود المادية – توجد حدود معنوية. طبعًا في الإسلام أيضًا من ارتكب عملا يتنافى مع مصالح بلده فحريته تحدّد. هذا شيء منطقي. ولكن توجد أيضًا حدود معنوية.

لو أن أحدًا حمل عقيدة تتعارض مع الإسلام، فلا ضير في ذلك، أقول لا ضير في ذلك، لأن الحكومة الإسلامية لا تتحمل تجاهه مسؤولية، إنما حسابه على اللّه. في المجتمع المسلم يعيش اليهود والنصارى وأتباع الأديان الأخرى، وهم يعيشون اليوم في بلدنا، وكانوا يعيشون في صدر الإسلام. لا مانع من ذلك. ولكن لو أراد واحد من هؤلاء الذين يحملون عقيدة تتعارض مع الإسلام أن يعمل بين البسطاء من الناس ويغريهم ويضلهم ، فذلك ما يشكل حدًا من الحدود، هنا تُحدّ الحرية. وهكذا مثلا لو أراد شخص أن يعمد إلى إشاعة الفساد أي فساد كان سياسيًا أو جنسيًا أو فكريًا، أو أن يعمد نفر من هؤلاء المتفلسفين إلى كتابة مقال بشأن أضرار التعليم العالي للشباب !! وبيان معايبه. طبعًا مثل هذا الكلام لا يؤثر في تسعين بالمائة من الشباب، ولكن قد يتأثر عشرة بالمائة من الكسالى، من هنا فلا يجوز السماح لمثل هذه الكتابات أن تخرّب المعنويات العلمية لشبابنا.

الحرية ليست نشر الأكاذيب، الحرية ليست نشر الإشاعات، الحرية ليست الإرجاف. أنا أعتب على أولئك الذين يكتبون عن الحرية دون الرجوع إلى مفاهيم الإسلام ومصادر الإسلام. يقول سبحانه في الآية ٦٠ من سورة الأحزاب:

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾. فالذين في قلوبهم مرض والمرجفون ذكرتهم الآية إلى جانب المنافقين. و«المرجفون» هم الذين يبثون الخوف والرعب في نفوس المسلمين. وكان هؤلاء المرجفون يعملون في المجتمع الإسلامي الوليد المحاط بألوان الأخطار والأعداء، ويتغلغلون داخل صفوف الأمة التي عبّئها القرآن وعبّئها نبي الإسلام وجعل منها أمة مدافعة مضحية، لبثّ روح الخوف والجبن واليأس بين الناس، وليعملوا كالجذام في إضعاف معنويات الأمة.

ولو لم يكفّ هؤلاء عن إرجافهم «لنغرينك بهم». أي نسلطك عليهم. هذا حدّ الحرية. إذن الحرية في الإسلام تختلف عن الحرية في المفهوم الغربي في كونها محدودة بالقيم المعنوية.

الثانية : الحرية والتكليف

ثمة تباين آخر هو أن الحرية في الفكر الليبرالي تتعارض مع «**التكليف**» بينما الحرية في المفهوم الإسلامي تشكل الوجه الآخر لعملة «التكليف» . أساسًا الناس أحرار لأنهم مكلفون. لو لم يكونوا مكلفين ما احتاجوا إلى الحرية، وكانوا كالملائكة...

يختص البشر بأنه مجموعة من الدوافع والغرائز المتضادة، وهو مكلف أن يطوي طريق كماله من خلال هذه الدوافع المختلفة. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ والعبودية هي ذروة الكمال. والحرية أيضا مثل حق الحياة، مقدمة للعبودية.

وفي الغرب، تمادوا في رفض «التكليف» حتى لم يعد هذا الرفض مقتصرًا على الأفكار الدينية، بل شمل حتى الأفكار غير الدينية وكل الأيديولوجيات التي تنطوي على تكليف، وعلى واجب وحرام، وعلى ما ينبغي وما لا ينبغي. والآن نرى في كتابات هؤلاء الليبراليين الأمريكيين وشبه الأمريكيين وأتباعهم وأشياعهم ومقلديهم في البلدان الأخرى ومنهم فئة مع الأسف في بلادنا يقولون: التفكير الغربي الحر يتعارض مع مبدأ «ينبغي ولا ينبغي» ومع مبدأ وجود الأيديولوجية . الإسلام يقف في النقطة المقابلة لذلك تمامًا. الإسلام يعتبر حرية الإنسان مقرونة بالتكليف، ليستطيع الكائن البشري بهذه الحرية أن ينهض بأداء تكاليفه بشكل صحيح.. لينهض بالأعمال الجسام، ويتخذ القرار الكبير، وليصل إلى التكامل المنشود.

من هنا فإن وصيتي الأولى لأولئك الذين يكتبون ويناقشون أن يكونوا مستقلين في مفهوم الحرية، وأن يتجنبوا التبعية في تفكيرهم. وتوصيتي الثانية أن يتجنبوا استغلال الحرية لمقاصد سيئة...

إحياء الإحيائيين

محمد علي التسخيري *

الإحيائيون نهضوا بأساليب مختلفة لإبقاء جذوة الحياة متّقدة في نفوس شعوبهم. والمشترك في كل أساليبهم هو أنهم خاطبوا الشعور.

والشعور – وإن شئت سميته العاطفة – هو القسم الساخن من تكوين الإنسان، وهو الذي يدفع نحو الحركة والتسامي والكمال، ويبقى للعقل دوره في توجيه هذه الحركة وهدايتها إلى الطريق الصحيح كي لا تنحرف أو تزيغ.

في كتاب الله العزيز ورد تعبير «لا يشعرون» بعد الحديث عن أولئك الذين يخالون أنهم قادرون بعقولهم أن يخدعوا ويضلّوا ويمكروا:

﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ، ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾...

* ـ الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

قصيدة «فكرة الفنان» للشاعر التونسي الشابي المنشورة في هذا العدد تعبّر خير تعبير عن دور الشعور في حياة الإنسان.

وفي هذا الشهر (اردیبهشت) تقام احتفالات بأيام خاصة للإحيائيين: الشهيد مرتضى مطهّري، الشهيد محمد باقر الصدر، وهما إحيائيان نهضا بالأمة لترتفع في آمالها وطموحاتها وأهدافها نحو المثل الأعلى الكبير.. ولتتعالى على مظاهر الإحباط والهزيمة وفقدان الهوية والصراع الطائفي والقومي ولتستعيد عزّتها وكرامتها ومكانتها اللائقة على ظهر الأرض.

وفي نفس هذا الاتجاه تقام احتفالات في أيام خاصة من هذا الشهر لإحياء ذكرى شخصيات أدبية أمثال الفردوسي والخيام وسعدي الشيرازي والشيخ بهاء الدين العاملي.. وهؤلاء العظام نهجوا أساليب مختلفة للمحافظة على حياة أمتهم في عصر تكالبت عليها عوامل التراجع الحضاري.

الاحتفال بهؤلاء العظام له عطاء هام في حياتنا المعاصرة، إذ نكشف عن عطائهم لأمتهم ونستثمر هذا العطاء لعملية الإحياء الضرورية الهامّة التي نحن بأمسّ الحاجة إليها اليوم.

كما أنها حثّ للمخلصين من أبناء الأمة القادرين على مواصلة هذا الدرب اللاحب الطويل.

إن التقريب المذهبي إنّما يحقّق نجاحه في الأمة الحيّة.. في الأمة التي تحمل شعورًا يؤهلها لأن تسمو على الصغائر وتعي أساليب الاستفزاز والهدم والتفرقة.

من هنا فإن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية يطرق كل باب يؤدي إلى رفع مستوى الوعي والشعور لدى الأمة. ومن تلك، المشاركة في إحياء ذكرى الإحيائيين. فالإحياء تلخيص لكل أهداف الإسلام: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

إن الحوار الإيراني ـ العربي قادر أن يراجع حقيقة الإسلام في نصوصه، في تاريخه، ليكشف عن الجوانب الإنسانية من هذا الدين في ما يرتبط بقضايا الجهاد، والفتح وقضية ممارسة القوة، والجانبان أقدر من غيرهما على ذلك لما بينهما من تراث مشترك وتاريخ مشترك يبدأ من إسلام الإيرانيين في اليمن عن طريق الدعوة بالكلمة، ويتواصل عبر التعاون الإيراني ـ العربي في فتح إيران. كما أنهما، لمكانتهما العالمية ومكانتهما في العالم الإسلامي، أقدر على تصحيح الصورة بشكل نظري وعملي في هذه القضية بالذات.. قضية الإرهاب.

الهجرة والتعارف

• الهجـرة وراء قيـام الحضـارات • المشـروع الإسـلامي يسـتهدف الانتقـال مـن البـداوة إلى التحضّـر • مواقـف المهـاجرين مـن العـالم الإسـلامي: انكمـاش، انصهار، تعـارف • الانكمـاش لـه سـلبياته ومنها أنها قد تؤدي إلى ردود فعل انفعالية • والذوبان قد يؤدي إلى خيانـة الأمـة • المهزومـون مـن المهـاجرين الإيـرانيين تنكـروا لكـل ثقافـة أمـتهم • المهـاجرون إلى الغـرب يسـتطيعون أن يحققـوا هـدف «التعارف» بين الغرب والعالم الإسلامي .

الهجرة الفردية والجماعية – مهما كان أسبابها ودوافعها - من أهمّ مقدّمات تعارف الشعوب. وهذا التعارف هو بدورة مقدمة لازمـة لحركـة الثقافـة، والحركـة الثقافيـة تـؤدّي إلى قيـام الحضارات.

فـالهجرة مظهـر حضـاري نَعِـم بـه المسـلمون في عصـر الفتوحـات الإسـلاميّة، وقامـت علـى أثـر تعـارف الشـعوب حضـارة إسـلامية متميّـزة بـين الحضـارات الـتي شـهدها العـالم حتـى اليـوم، وهـذا التمـايز يتمثـل في الجمـع بـين التطـوير المعنـوي والتطـوير المـادي للجماعة البشرية.

وَينْعَم به المسلمون اليوم، ولكـن بدوافع أخرى يجب أن تُؤخذ بنظـر الاعتبـار، كـي تتحـول الهجـرة في عصـرنا أيضًـا إلى تعـارف وحركة ثقافية وإنتاج حضاري بدل الانكماش أو الانصهار.

التعارف والتحضّر

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

هذه الآية الكريمة تشير إلى نوعين من التعددية الطبيعيّة في المجتمع البشري وهي التعددية الجنسية (الذكر والأنثى) وهذه التعددية تؤدي إلى استمرار نماء البشرية كميًّا، أمّا التعددية الثانية (الشعوب والقبائل) بسبب عطفها على الأولى قد تتضمّن معنى استمرار النماء البشري كيفيًا. والنماء البشري الكيفي هو حركة الإنسان على طريق ممارسة دور الاستخلاف في الأرض وعمارها ماديًا ومعنويًا، إنه بعبارة أخرى حركة الإنسان الحضارية.

المشروع الإسلامي بعقيدته وتشريعاته يتجه نحو إخراج الناس من البداوة إلى الحضارة، ومن الظلمات التي لا تسمح للإنسان أن يتحرك نحو الله، أي نحو الكمال المادي والمعنوي، إلى النور الذي يفتح أمام الإنسان آفاق الطريق والمستقبل، إنه إخراج الناس من حالة الموت المتمثلة في جمود الحركة البشرية، إلى الحياة بكل ما فيها من رشد ونماء وتطوّر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤).

وانطلاقا من هذه القاعدة، لا نستبعد ما يذهب إليه الباحثون من أنّ الحضارات في تاريخ العالم نشأت بأجمعها على أثر الهجرات البشريّة. والحضارة الإسلامية ليست بمستثناة من ذلك.

ويكفي أن نقف عند اللقاء العربي الإيراني على سبيل المثال في الكوفة والبصرة وبغداد، ونيشابور وإصفهان وبخاري وسمرقند و.. لنرى أن هذه المدن كانت حواضر للقاء العرب والإيرانيين، وبالتالي مراكز للحضارة الإسلامية.

أكبر خطر يواجه الحركة الحضارية هو «**الاستضعاف**»، والاستضعاف هو فرض حالة شعورية من الضعف والهزيمة على الإنسان تشلّه عن الحركة نحو كماله المنشود، أي نحو حركته الحضارية. من هنا جاء التأكيد على الهجرة للتخلص من هذه الحالة الشعورية، وبالتالي لممارسة دور الاستخلاف ودور الانطلاق الحضاري في الأرض، وإلاّ كان ظالمًا لنفسه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:٩٧).

حالات المهاجرين من العالم الإسلامي إلى الغرب

اسمحوا لي أن أستعمل عبارة المهاجرين من العالم الإسلامي، بدل المهاجرين المسلمين، لاعتقادي أن **أبناء هذه الدائرة من المسلمين والمسيحيين واليهود والزرادشتيين والصابئة وغيرهم يشتركون في جذور حضارية واحدة، ويواجهون تحديًا مشتركًا في هجرتهم**، كما أنهم يتقاربون كثيرًا في الآمال والآلام في دار الهجرة، ولنا في أدباء المهجر الشمالي والجنوبي الامريكي خير مثال على ما نذهب إليه.

والحالات المشهودة في هؤلاء المهاجرين على ثلاثة أنحاء: **الانكماش** أو **الانصهار** أو **التعارف**. وسأقف عند هذه الحالات الثلاثة من منظور حضاري:

الانكماش:

هي الحالة التي يتقوقع الإنسان على نفسه، ويرى أن الآخر الغربي شرٌّ كله، لا يجوز أن يسمع منه شيئًا، ولا يجوز أن يتعامل مَعَه، وهذه ظاهرة من ظواهر الركود الحضاري، لأن الجسم المتحضّر حيّ يأخذ النافع ويلفظ الضار، ويهضم، ويتمثّل، ويُثري وجوده بذلك، لكن حالة الركود الحضاري التي أصابت العالم الإسلامي أفقدت المسلمين قدرة الموازنة بين التحدي والاستجابة، وجعلتهم بين إفراط وتفريط. وهذه الحالة نقلها أبناء العالم الإسلامي إلى مهاجرهم.

جدير بالذكر أن هذه الحالة غذّتها عوامل خارجية تتمثل في استهانة الغرب بالمسلمين، وغرس روح الذل والحقارة في نفوسهم، واتخاذ المواقف الحاقدة تجاههم، كما غذّتها عوامل داخليّة تبلورت في فكر إسلامي تكفيري، وفي فكر قومي يتغنّى بالأمجاد ويستحضر الماضي أكثر من التفكير في الحاضر والمستقبل.

الذوبان:

وهذه الظاهرة أيضًا من مظاهر الركود الحضاري في العالم

الإسلامي، إذ إنها نتيجة الهزيمة النفسية التي تدفع إلى الاعتقاد بضرورة سيطرة الثقافة الغالبة، واستحالة عمل أيّ شيء مع وجود هذه السيطرة.

والذوبان يؤدي إلى اتخاد واحد من المسارين التاليين أو الاثنين معًا. مسار الذوبان الفردي في الغرب وثقافته حتى ينسلخ المغترب تمامًا عن أهله ووطنه، ويعيش لبلدان الاغتراب ولمصالح تلك البلدان، وقد يُسخّر لما يعادي مصالح بلده. والمسار الثاني هو أن يجنّد المغترب نفسه لدعوة شعوب البلدان الإسلامية إلى التخلّي عن كل ما يمتّ إلى أصالتها بصلة، يدعوها إلى أن تتخذ ثقافة الغرب قدوة في حياتها، وذلك في زعمهم الطريق الوحيد للتخلّص من حالة التخلّف.

التعارف:

رغم سيادة مظاهر الإفراط والتفريط في الموقف من الغرب، بسبب حالة الركود الحضاري في أمتنا الإسلامية، لكن الجذور الثقافية الحيّة في أعماق المسلمين تدعوهم إلى عدم الاستسلام أمام هذه الحالة ومحاولة استعادة وجودهم الحضاري، وهذا ما نشاهده في مواقف كثيرة فردية وجماعية للمسلمين المغتربين، هذه المواقف يجمعها الإيمان بأنّ الأمة الإسلامية مؤهّلة لأن تستعيد وجودها الحضاري، شرط أن تجعل خطابها متناسبًا مع العصر، وتتحرّك بمستوى احتياجات العصر. عندئذ تستطيع أن تقف على قاعدة صلبة من ثقافتها لتحاور الغرب، تأخذ منه

وتعطيه، وتنطلق من نقاط قوته التي استند إليها في حركته، لبعث حركة في الأمة تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

أخطار الانكماش

الإنسان المتدين لا يملك إلاّ أن يقف بإجلال واحترام أمام الذين انعزلوا عن طوفان الفساد والفحشاء المتفشي في عالم الغرب ووطّنوا أنفسهم على الالتزام الصارم بالدين وبتعاليم الشريعة. لكنّ هذا الاحترام لا يمنعنا أن نرى ما يمكن أن تنطوي عليه هذه الحالة من سلبيات.

السلبية الأولى: هي نظرة هؤلاء إلى الغرب باعتباره القوة الغالبة التي لا يمكن التحاور معها، وأن التحاور سيؤدي إلى انجرار المحاوِر المهاجر إليه.

السلبية الثانية: هي فقدان مشروع الدعوة لدى هؤلاء، ولا يرون أنهم يتحمّلون مسؤولية إيصال الرسالة الإسلامية إلى المجتمع الغربي.

و**الثالثة**: غياب المشروع الحضاري الإسلامي من أذهان هؤلاء، وعدم ارتفاعهم إلى مستوى تقديم هذا المشروع بلغة العصر وعلى مستوى احتياجات العصر إلى الغرب.

الرابعة: أنهم يفوّتون على أنفسهم فرصة التعرّف الموضوعي على الغرب بسلبياته وإيجابياته، وبذلك يفوّتون على أمتهم فرصة «التعارف» مع الحضارة الغربية.

الخامسة: أن هذه المجموعة قد تُستَغل لردود فعل غاضبة

انفعالية تجاه الغرب، وبذلك يوفّرون لأعداء الإسلام فرصة اتهام الإسلام بالإرهاب.

أخطار الذوبان

أخطار الذوبان كبيرة جدًا، ولعلّها كانت من أكبر المؤثرات على مسيرة العالم الإسلامي في العصر الحديث.

فالمهاجرون المنهزمون أمام الغرب كان لهم دور كبير في الاتجاهات العلمانية في العالم الإسلامي، كما كان لهم الدور الهام في فسح المجال أمام الهيمنة الغربية للسيطرة على مقدرات العالم الإسلامي.

اضرب لذلك مثالاً من إيران، ونظائره كثيرة في العالم العربي وتركيا وشرق آسيا.

المثال الذي أقدمه من إيران هو دور المهاجرين الإيرانيين إلى القفقاس، التي كانت يومًا جزءًا من إيران، ثم انفصلت لتكون مرتعًا للتآمر على إيران في مطلع القرن الماضي.

يرى الدكتور علي أكبر ولايتي أن هؤلاء المهاجرين الايرانيين في القفقاس كانوا يشكلون الرأس المفكر لطبقة المثقفين الإيرانيين الذين اتخذوا مواقف عدائية مستمرة تجاه الدين وعلماء الدين، وكان نفوذهم في الحركة الدستورية الإيرانية (١٣٢٣ – ١٣٢٧هـ) هو الذي جعل هذه الحركة تنحرف عن مسارها، وأدّت إلى إعدام عالم الدين الكبير الشيخ فضل الله النوري، وجعلت أنصار هذه الحركة التي سميت (مشروطة) موضع حماية السفارة البريطانية.

والدكتور ولايتي في كتابه *مقدمة فكرية لحركة المشروطة*. يذكر نماذج من هؤلاء المغتربين المتغربين الموجهين لحركة التجديد الثقافي في إيران، ونقف عند واحد منهم هو «ميرزا فتح علي آخوند زاده».

حين نطالع أفكار هذا الرجل نجد أنها هي نفسها أفكار المثقفين المهزومين الإيرانيين منذ مطلع القرن الماضي حتى يومنا هذا.

ميرزا فتح على آخوند زاده (١٢٢٨ – ١٢٩٥) ولد في القفقاس حين كانت جزءًا من إيران، ثم انفصلت عن إيران بحراب الجيش الروسي حين كان آخوندزاده في السادسة عشرة من عمره، وحوّلها الروس إلى منطقة معزولة عن إيران روحيًا وثقافيًا ودينيًا، طبعًا كان هناك من المسلمين الشهامى من ناضل الاحتلال الروسي مثل الشيخ شامل الذي حارب الروس ٢٥ سنة (١٨٣٤ - ١٨٩٥م)، ولكن كان هناك من خضع للاحتلال وعمل مع المحتلّ، مثل آخوندزاده الذي اشتغل ٤٠ عامًا في خدمة الروس إداريًا ، كما كان مع المجموعة التي هاجرت إلى القفقاس مصدر إشاعة روح الهزيمة أمام الفكر الغربي المادي في الشعب الإيراني. *ويمكن تلخيص أفكاره فيما يلي*:

١ - رأى ما فعله الروس في داغستان بتغيير حروف الهجاء العربيّة إلى حروف لاتينية خطوة لازمة لتطوير المنطقة الإسلامية، ودعا إلى إنقاذ إيران مما سمّاه «كارثة الخط الإسلامي القديم».

٢ - إن كلّ ما يعانيه الشعب الإيراني من تخلّف إنما يعود إلى الأفكار الدينية، ولابدّ من التخلّص منها لإسعاد الشعب والوطن.

٣ -حاول غرس روح كراهية العرب في نفوس الإيرانيين. فهو حين يتحدّث عن ضرورة إصلاح الخط، يطفح حديثه بهذه الكراهية يقول: «أحد الآثار المشؤومة لسيطرة العرب الوحوش (كذا) على ثغور إيران أنهم فرضوا علينا خطًا يجعل المستوى المتعارف من التعليم من أشقّ الأعمال... والآن فان المصنف يبذل غاية جهده لإنقاذ شعبه من هذا الخط القذر الدنيء (كذا) المتبقي من تلك الأقوام، ولانتشال شعبه من الظلمة والجهالة إلى نور المعرفة» .

عطاء التعارف

إذا كانت نهضة العالم الإسلامي تتوقّف على «التعارف» فإن المهاجرين إلى الغرب يستطيعون أن يوفّروا جانبًا مهمّا من هذا التعارف شرط أن يؤمنوا بالمشروع الحضاري الإسلامي ويفهموا مصادر قوّته، ثم يفهموا ما في الغرب من سلبيّات وإيجابيات، ويعلموا علم اليقين أن تخلّف العالم الإسلامي ليس حالة طبيعية دائمة، بل هو حالة مفروضة طارئة، وأن العامل الأول في فرض هذه الحالة هو القوى الغربية الطامعة، وأن المشروع الإسلامي قادر على أن يقدّم للعالم خطابًا مؤثرًا في تعديل الطغيان المادّي السائد، ويلطّف من الروح القلقة المضطربة لإنسان العالم الغربي.

والواقع أن هناك على المستوى الفردي والمؤسسي مَن ارتفع إلى مستوى التعارف، ولكن هذه الظاهرة لابدّ من تعميمها فلذلك العطاء الذي لا يخفى للعالم الإسلامي وللغرب وللإنسانية جمعاء.

الحوار الثقافي الإيراني – العربي
في العصر العباسي الأول

• كان التفاعل الثقافي بين الإيرانيين والعرب قائمًا منذ الفتح الإسلامي لإيران • روح التثاقف دفعت بأمثال الشاعر العربي العتابي لأن ينفتح على الآداب الفارسية • كانت الفارسية تدور في مجالس العالم العربي • حركة الترجمة بين العربية والفارسية مظهر للتثاقف في العصر العباسي • التمازج اللغوي من مظاهر التثاقف بين الإيرانيين والعرب • أكب الإيرانيون على تعلم اللغة العربية وتأثرت لغتهم بها أيّما تأثر.

بداية لابدّ من الإشارة إلى أن اللغة العربية نهضت بدورها في إطار الحضارة الإسلامية حين سادت روح التثاقف بين الشعوب الإسلامية، لقد ألغى الإسلام كل ألوان التعالي القومي والقبلي، ودعا إلى التثاقف أو «التعارف» بين الشعوب جاعلاً من الكمال الإنساني أو «التقوى» معيارًا للتكريم.

ولم تبق هذه الدعوة في الإطار النظري بل تحوّلت إلى واقع عملي ملموس، فقد ساد بين شعوب الأمة الإسلامية حوار جاد على اختلاف قومياتها ومذاهبها وتياراتها الفكرية، وكانت اللغة العربية تشكل الوعاء الذي دار فيه هذا الحوار، هذه اللغة، بما

فيها من قدرة على إيجاد الارتباط بين المتحاورين في جميع المجالات، شكلت عامل دفع لمسيرة الحضارة الإسلامية.

سنقتصر في هذا المقال على تقديم نموذج مصغّر للحوار الثقافي بين الإيرانيين والعرب في العصر العباسي الأول ضمن إطار اللغة العربية على أمل أن تستعيد هذه اللغة دورها في عملية المثاقفة بين الأمة الإسلامية، فتلك مقدمة لازمة لاستعادة دور هذه اللغة في نهضتنا الحضارية المرتقبة بإذن الله تعالى.

الأول – الحوار الثقافي الإيراني العربي في العصر العباسي

نعتقد أن إيران شهدت منذ الفتح الإسلامي حركة دائبة في حقل التداخل الثقافي والتفاعل الإبداعي (Interculturalite et Interrcreativite) والوثائق ــ رغم قلتها بسبب اهتمام المؤرخين بالجانب السياسي ــ تشير إلى ظهور أدباء وشعراء ومترجمين ولغويين وعلماء إيرانيين في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي، وتشير إلى تعاون الإيرانيين مع الحكومة الإسلامية في شؤون إدارة الدولة والدواوين.وكان أول ديوان للخراج (وزارة المالية) قد تأسس في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على يد الإيرانيين، وظلّت السجلات تكتب بالفارسية، حتى عرّبها إيراني سنة ١٢٤هـ. ونرى أكبر كتّاب العصر الأموي إيرانيًا هو عبد الحميد الكاتب الذي بلغ من الكتابة العربية شأوًا كبيرًا حتى قيل فيه أن الكتابة بُدئت به.

غير أن السياسة العامّة في العصر الأموي أضعفت هذا التفاعل أو غطّت عليه، فلم يكن ظاهرة ثقافية بارزة تستثير كُتاب التذاكر والتواريخ لتدوينها. ولكنه برز بكل طاقاته المكبوتة أو المقصاة في العصر العباسي.

والتداخل الثقافي الكبير في هذا العصر لا يرتبط بالدور الإيراني في الثورة العباسية بقدر ما يرتبط بطبيعة الثقافة العربية الإسلامية وموقفها من الآخر الثقافي، لأن هذا التفاعل كان قائمًا منذ الفتح كما ذكرنا، غير أن وجود الوزراء والولاة الإيرانيين في هذا العصر نشّط هذا التفاعل وغذّاه وهذه هي طبيعة ارتباط عملية المثقافة بالجهاز الحاكم، وهذا هو الذي يدعونا أن نعقد الأمل اليوم على حكومات العالم الإسلامي كما نعقده على النخب المثقفة والعلماء والفنانين.

ومما يدل على مكانة التداخل الثقافي في هذا العصر بروز عدد من المترجمين الإيرانيين، بل بروز أسر عُرفت بالترجمة وحظيت بمكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي مثل آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت وأكثر ترجماته في الفلك ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذي ترجم في حداثته بعض الكتب واستوزره المأمون، وسهل بن هارون أحد خزنة بيت الحكمة، ومحمد بن جهم البرمكي، وزادويه بن شاهويه، وبهرام بن مردانشاه، وموسى بن عيسى الكسروي، وعمر بن الفرّخان، وروزبه بن داذويه (ابن المقفع).. فهؤلاء وغيرهم ترجموا كنوز

الفـرس إلى اللغـة العربيـة، ومـا ترجمـوه إمـا أن يكـون مؤلفًـا بالفارسية أصلاً، أو مترجمًا من اليونانية إلى الفارسية على نحو ماهو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو.

«وللبرامكـة فضـل عظـيم في إذكـاء الترجمـة حينئـذ، فقـد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية».

وأما بالنسبة للعلوم الإسلامية فإن «السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالي، وخاصة الفرس».

ومن الملاحظ في هذا العصر أن روح الانفتاح في الثقافة العربية الإسـلامية عبّـرت عـن نفسـها بمجـالس الحـوار الـتي جمعـت الاتجاهـات الفكريـة المختلفـة، للتباحـث حـول مختلـف مجـالات المعرفة. وكانت مجالس البرامكة عامرة بهذه المناظرات.

أنقـل مـا رواه المسـعودي عـن منـاظرة هامـة دارت في أحـد هـذه المجـالس بـين أصـحاب المـذاهب المختلفـة. جـاء في مـروج الـذهب: «كـان يحيـى بـن خالـد ذا علـم ومعرفـة وبحـث ونظـر، ولـه مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل [الآراء و] النحـل، فقـال لهـم يحيـى وقـد اجتمعـوا عنـده: قـد أكثـرتم الكـلام في الكمـون والظهـور، والقـدم والحـدوث، والإثبـات والنفـي، والحركـة والسـكون، والمماسّـة والمباينـة، والوجـود والعـدم، والجـر والطفـرة، والأجسـام والأعـراض، والتعـديل والتجـريح ونفـي الصـفات وإثباتهـا، والاسـتطاعة والأفعـال،

والكمية والكيفية والمضاف، والإمامة أنص هي أم اختيار، وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع، فقولوا الآن في العشق على غير منازعة، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه، وخطر إيراده بباله.

فقال علي بن هيثم (وكان إماميّ المذهب من المشهورين من متكلمي الشيعة): أيها الوزير، العشق ثمر المشاكلة، وهو دليل تَمازُج الروحين، وهو من بحر اللطافة، ورقة الصنيعة ، وصفاء الجوهر [وليس يُحدُّ لسعته] ، والزيادة فيه نقصان من الجسد.

وقال أبو مالك الحضرمي، وهو خارجي المذهب (وهم الشراة): أيها الوزير العشق نَفْثُ السِّحر، وهو وأخفى وأحرّ من الجمر، ولا يكون إلا بازدواج الطَّبعَين، وامتزاج الشكلين، وله نفوذ في القلب كنفوذ صيِّب المُزنِ في خلل الرمل [وهو ملك على الخصال] تنقاد له العقول، وتستكين له الآراء.

وقال الثالث: وهو محمد بن الهذيل العَلاّف، وكان معتزليّ المذهب وشيخ البصريين: أيها الوزير، العشق يختم على النواظر، ويطبع على الأفئدة، مرتقى في الأجساد، ومسرعة في الأكباد، وصاحبه متصرّف الظنون، متغيّر الأوهام، لا يصفو له موجود، ولا يسلم له موعود، تسرع إليه النوائب، وهو جرعة من نقيع الموت، وبقية من حياض الثكل، غير أنه من أريحية تكون في الطبع، وطلاوة توجد في الشمائل، وصاحبه جواد لا يُصغي إلى داعية المنع، ولا ينسح به نازعُ العذل.

وقال الرابع: وهو هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإمامية في وقته وكبير الصنعة في عصره: أيها الوزير، العشق حِبالَةٌ نَصَبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص في النوائب، فإذا عَلِقَ المحبّ في شبكتها ونشب في أثنائها فأبعد به أن يقوم سليمًا أو يتخلص وشيكًا، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة، وتكافؤ في الطريقة، وملاءمة في الهمّة، له مقتل في صميم الكبد ومهجة العقل، يعقد اللسان الفصيح، ويترك المالك مملوكًا، والسيّد خَولاً حتى يخضَعُ لِعَبد عَبَده.

وقال النَّظام إبراهيم بن يَسار المعتزلي (وكان من نُظّار البصريين في عصره): أيها الوزير العشق أرقُّ من السراب، وأدبُّ من الشراب، وهو من طينة عَطِرَة عُجنت في إناء الجلالة، حلو المجتنى ما اقتصد، فإذا أفرط عاد خبلاً قاتلاً، وفسادًا معضلاً، لا يطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة تهمى على القلوب، فَتُعشِب شعفًا، وتُثمر كلفًا، وصريعُه دائم اللوعة، ضيّق المتنفس، مؤرّق الزمن، طويل الفكر، إذا أجنَّه الليل أرق، وإذا أوضحه النهار قلق، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى.

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب، وفيما مر دليل عليه».

والموضوع الذي دار فيه الحديث (العشق) له ما يشابهه عند اليونان، ثم إن الموضوع تبلور فيما بعد وبلغ قمته على يد أهل العرفان الإيرانيين أمثال سنائي والعطار وحافظ والمولوي،

ويمكن أن يشكّل مشتركًا إنسانيًا تلتقي في ساحته الثقافات المتنوعة.

أما التداخل الثقافي في ساحة الأدب بين الإيرانيين والعرب فيشكّل معلمًا هامًا من معالم الانفتاح الثقافي، وهو تداخل ذو دلالة هامّة لأن الأدب يعبّر عن أعمق التجارب الشعورية للإنسان، والمثقافة في هذه الساحة لها دلالات أعمق من التبادل الثقافي في المجال الفكري والعلمي.

وبلغ انفتاح الثقافة العربية الإسلامية على آداب اللغة الفارسية حدًا دعت الدكتور الشايب أن يقول:

«إن هذا النفوذ الفارسي السياسي يسّر للثقافة الفارسية أن تتسرّب إلى العقلية العربية الإسلامية عمومًا، فأخذت هذه الثقافة تبسط سلطانها علميًا وفنيًا وأدبيًا حتى صار الأدب العبّاسي عامة أدبًا جديدًا ليس للعرب فيه إلاّ اللغة، وأما موضوعاته وفنونه وأساليبه وصوره، فقد أخذت تستحيل في ظل هذا السلطان الجديد، وصار الأدب أجنبيًا».ولنا على هذا الرأي بعض الملاحظات منها **أن العامل السياسي كما ذكرنا كان أقل أهمية في هذه المثقافة من طبيعة الانفتاح في الثقافة العربية الإسلامية، وما كان للعامل السياسي إلاّ دور المنشّط لا المؤسس.** ومن الملاحظات على رأي الدكتور الشايب قوله: صار الأدب أجنبيًا. ولم يُصبح كذلك، بل كان أدبًا عربيًا في لغته وأساليبه، ومزيجًا جديدًا ناتجًا من تفاعل الثقافتين العربية والفارسية في إطار الإسلام من حيث محتواه.

روح الانفتاح على الآخر كانت وراء مافعله الأدباء العرب أمثال العتابي كلثوم بن عمر التغلبي الذي أدّاه شغفه بالآداب الفارسية إلى الرحلة مرارًا إلى خزائن الكتب بمرو وخراسان ليتزوّد بكنوز الأدب الفارسي. وقد رآه شخص يومًا ينسخ بعض كتب الآداب الفارسية، فسأله متعجبًا: لِمَ تكتبُ كتب العجم؟ فأجابه منُكرًا سؤاله: **وهل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم؟ اللغة لنا، والمعاني لهم.**

التمازج الثقافي العربي الإيراني نلاحظه أيضًا في التداخل اللغوي، **فقد انكبّ الإيرانيون على اللغة العربية وتأثرت لغتهم بها أيّما تأثر**، كما تعلّم العرب اللغة الفارسية وتمازجت اللغتان، وظهر ذوو اللسانين من المؤدبين والكتاب والشعراء والقصاصين.

ويروي الجاحظ عن قاص وواعظ بالبصرة هو موسى الأسواري يقول: «كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه والفُرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسّرها لهم بالفارسية، **فلا يُدري بأي لسان هو أبين**».

وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويُحسنها، حتى لنراها تدور في مجالسهم. وكانت الفارسية تشيع على ألسنة الكثيرين في الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة، ودخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس.

الأدبان الحديثان العربي والفارسي
مقاربة في الظواهر المشتركة / ١

• بسبب غياب المشروع المتكامل الإسلامي كان ثمة تأرجح بين الأدباء الإيرانيين والعرب بشأن قضايا التراث والمعاصرة • رفض الواقع السيّء عند الفريقين يستند إلى شعور إنسان هذه المنطقة بخلفيته الحضارية العريقة • لم يكن في الساحة مشروع يحتذى للتخلص من الواقع الفاسد • أمام التحديات الداخلية والخارجية تصاعدت إرادة التغيير.

الحديث عن الأدب في أية أمة هو الحديث عن حياة تلك الأمة بكل ما في هذه الحياة من قوّة وضعف، ومن مظاهر صحة أو مرض، ومن هزيمة وانتصار.

قصة العرب والإيرانيين في العصر الحديث تكاد تكون متشابهة في كثير من مقاطعها وانعطافاتها. تبدأ من غزو عسكري لا يشبه ذلك الغزو الذي تعرضت له المنطقة من قبل على يد الصليبيين الأوائل أو الغزّ أو المغول، لأنه كان هذه المرة مجهزًا بمشروع حضاري متكامل فيه الفكر الفلسفي والعلمي والتطور التقني. وكان من المفروض بمنطق التاريخ أن يذوب

العرب والإيرانيون في الفاتحين المنتصرين، وينهزموا أمامهم تمامًا، بلغتهم وخطّهم وفكرهم وأدبهم ودينهم وتقاليدهم، كما حدث للأمم المغلوبة على مرّ التاريخ، لكن الذي حدث أن انبثق لديهما بدل ذلك تشبّث بالحياة والبقاء، ويعود ذلك إلى ما يستندان إليه من خلفية حضارية غنية بأفكارها وآدابها ومعتقداتها وتراثها. من هنا حدثت عودة إلى الماضي في عصوره الذهبية مع ظهور إرادة التغيير.. وبدأ من هنا ظهور الإشكالية التي لا تزال قائمة لديهما حتى اليوم متمثلة بالطموح إلى مشروع يجمع بين الأصالة والمعاصرة.. بين الحفاظ على المخزون الحضاري الذي يعود إليه الفضل في الحياة والإرادة والهوية، وبين التطور العالمي الهائل في جميع المجالات.

وبسبب غياب المشروع المتكامل كان هناك تأرجح واضح في الأفكار والآراء تجاه قضايا التراث والمعاصرة، ويمكن اختصار الاتجاهات التي ظهرت في الفكر والأدب مع شيء من التسامح بثلاثة اتجاهات:

الأول: التمسّك بالقديم وخاصة ما كان في عصوره الذهبية باعتباره أفضل عملية تستطيع أن تحافظ على الهوية والشخصية الحضارية، وتقينا من الذوبان في الآخر.

الثاني: يرى أن كل مشاكلنا في تمسكنا بالقديم، وإذا أردنا أن نحافظ على وجودنا فلابد من قبول الحضارة الغربية بكل ما فيها من خير أو شر، إذ لا يمكن فصل أجزاء المشروع الحضاري، ولابد من رفض كل ما يمت للقديم بصلة.

الثالث: يرى أن الحضارة الإسلامية طالما واجهت تيارات فكرية غريبة، وكان موقفها من هذه التيارات موقف الانتقاء والتفاعل الإيجابي. ونستطيع اليوم أن نقف على قاعدة من تراثنا، لنتعامل مع الحضارة الغربية بشكل إيجابي فاعل.. نأخذ منها ما نريد ونرفض ما لا نريد.

وشهدت الساحة الأدبية والفكرية نقاشًا حادًا بين التيارات الثلاثة بأساليب مختلفة، وكان الإشكال على الاتجاه الأول اتهامه بالجمود، وعلى الثاني رميه بالتغرّب والهزيمة، والثالث كان أقوى حجّة غير أن عملية الانتقاء ما كانت باليسيرة لأنها تتطلّب وجودًا حضاريًا على مستوى العصر، يستطيع أن يواجه التيارات الوافدة ويتفاعل معها إيجابيًا، وإلا سوف يتحوّل التفاعل إلى انفعال.

فمن هذه القصة المشتركة بين الأدبين الحديثين العربي والفارسي سأقف في هذا القسم عند محطات تمثل جوانب من هذه القصة، وهي:

- رفض الواقع السّيء
- التفكير في العلاج
- وإرادة التغيير
- التأثير الغربي

مركزًا على الأدب الفارسي لعلم القارئ العربي بما في الأدب العربي الحديث من نظائر لهذه المنعطفات.

رفض الواقع السيء:

عدم الاستسلام للواقع المتردّي الذي مُنيت به الأمة وأدّى إلى هزيمتها ظاهرة مشهودة في الأدبين المعاصرين العربي والفارسي.

وتستند هذه الظاهرة إلى ما كان يستشعره إنسان هذه المنطقة الحضارية من تاريخ عريق مليء بالمفاخر. يقول علي أكبر دهخدا. [ولد سنة ١٨٩٧]:

١ - أي مردم آزاده كجائيد كجائيد — آزادگي أفسرد يائيد يائيد

٢ - در خطه وتاريخ چو آزاده بخوانيد — مقصود ز آزاده شمائيد شمائيد

٣ - اي شهره شما روشني چشم جهانيد — در چشمه خورشيد شما نور وضائيد

أي:

١- أيها الأحرار أين أنتم؟ أين أنتم؟ فالحرية ذبلت، هلمّوا هلمّوا.

٢ - إقرأوا قصص التاريخ مثل قراءة الأحرار، والمقصود من الأحرار هو أنتم، أنتم بالذات.

٣ - أنتم دون شك ضياء عيون العالمين، وأنتم في عين الشمس نور وضياء.

ويستذكر أديب الممالك الفراهاني. [ولد سنة ١٨٨٠] أمجاد المسلمين، وكأنها جزء من أمجاد بني وطنه، فيقول:

١ - درچين وختن وولوله أز هيبت ما بود — در حمر وعين غلغله أز شوكت ما بود

٢ - در أندلس وروم عيان قدرت ما بود — غرناطه وأندلسيه در طاعت ما بود

٣ - صقليه نهان در نفس و در ريات ما بود — فرمان همايون خط آيت ما بود

٤ - جاري به زمين وفلك وثابت وسيّار

أي:

١ـ كانت الصين والختن صاخبة من هيبتنا

وكانت مصر وعدن تعج من شوكتنا

٢ - وكانت الأندلس والروم عيانًا فيها قدرتنا

وكانت غرناطة وأشبيلية كلها في طاعتنا

٣ - وكانت صقلية النائية في كفنا ورايتنا

وكان أمر القضاء الحاكم آيتنا

٤ - الجارية في الأرض والفلك الثابت والسيار

ولا يقتصر الشاعر على ذكر الأمجاد، بل يلتفت إلى الواقع السيء، فيقول:

١ـ أفسوس كه أبي مزرعة را آب گرفته دهقان مصيبت زده را خواب گرفته

٢ - خون دل ما رنگ مي ناب گرفته وز سوز دل تب پيكر ما تاب گرفته

٣ - رخسار هنر گونه مهتاب گرفته چشمان خرد پرده ز خوناب گرفته

٤ - ثروت شده بي مايه و صحت شده بيمار

أي:

١ـ أسفًا لقد غمر الماء هذه المزرعة

وقد غطّ في النوم هذا الفلاّح المنكوب

٢ - ومهجتنا اصطبغت بلون الشراب النقي

وانحنت قامتنا من حرّ الحمّى

٣ - ووجه الفن أصبح كالليل المشوب ببصيص القمر

وعيون العقل أُسدلت عليها ستائر حمراء

٤ - أصبحت الثروة غير ذات قيمة وأضحى الجسم سقيما

التفكير في العلاج:

لم يكن في الساحة مشروع يُحتذى للتخلّص من الوضع الفاسد، بل تراوحت وجهات النظر في العلاج بين الاستنهاض العسكري، والتغيير السياسي، والتحول الاجتماعي.

يقول علي أكبر دهخدا بعد أبياته التي ذكرناها في دعوة أحرار إيران:

١ -اين روبهكان تطمع أز ملك ببرّند يك بار دگر پنجه شيري بنمائيد
٢ -أندر كفتان جوكان، وين گوي به ميدان بشتابيد وچوگان زنكي زوبر بائيد
٣ -اين عقده گشوديد به اعصار وكنون هم اين بسته گشائيد كه اين عقده گشائيد
٤ -مهيد زنك چاپخ وشتيره زمين در حرب ووغائيد نه در صلح وصفائيد

أي:

١- حتى ينقطع أمل هذه الثعالب من البلاد
مرة أخرى اشهروا مخالب الأسود

٢ - في أيديكم صولجان، وهذه الكرة في الميدان
فاضربوا الكرة بسرعة وبجَلَد وخفّة

٣ - كثيرة هي العقد التي حُلّت بأيديكم في العصور
وهذه العقدة المستعصية حلّوها، فما أكثر ما فككتم من عُقد!!

٤ - لا تلقوا مابيدكم من سلاح
ففي الحرب والوغى أنتم، لا في صلح وصفاء

ويرى محمد تقي بهار أن الأوضاح تحتاج إلى جماعة مصلحة تشيع في الوطن التربية والحرية والقانون، فيقول بعد أن يستعرض

مفاخر إيران قبل الإسلام وبعده:

١ - إيران ود آن چشمه صافي كه بتدريج ... بگرفته لعفن تا گلو وزير ذقن را

٢ - كو مرد ديلمي كه به بازوي توانا ... وطي أز اين چشمه گل لعي ولعن را

٣ - جز فوقه مصلحتكند دفع مفاسد ... آن فوقه كه آزرم ندارد تو ومن را

٤ - بي تربيت آزادي وقانون تواند ... (سعفص) تواند خواند نخواند (كلمن) را

٥ - بي نيروي قانون نرود كاري أز پيش ... جز بر سر آهن نتوان برد ترن را

٦ - يارب وطنگهبان دل أهل وطن باش ... كاميد به إيشان بود إيران كهن را

أي:

١- إيران كانت عين صافية، ثم بالتدريج

علاها العفن حتى الحلقوم وتحت الذقن

٢ - أين الرجل الشجاع الذي بساعديه القويتين

يزيل عن هذه العين الأوحال والعفن

٣ - لا يستطيع دفع المفاسد سوى جماعة مصلحة

جماعة ليس همّها أن تقول أنا وأنت

٤ - فبدون التربية والحرية والقانون لا يمكن أن يكون لنا شيء

لايمكن بدونها أن نقرأ (سعفص) ولا (كلمن)

٥ - لا يمكن أن نفعل شيئًا دون قوة القانون

ولا يمكن تسيير القطار إلاّ على سكة الحديد

٦ - يارب كن حارس قلب أهل الوطن

فأمل إيران العريقة بهؤلاء

ويرى أديب الممالك في قصيدة أن المشكلة سياسية تتمثل بالتدخل الأجنبي الروسي والبريطاني ، فالروس نقضوا العهود ،

وجاء البريطانيون ملوحين بالإنقاذ غير أن عهودهم أيضًا أبادت البلاد.. ويرى أن سبب هذا التدخل الأجنبي هم المسؤولون من وزراء ونواب يبيعون الأوطان للأجنبي بثمن بخس، يقول:

١ - در طرف رلت يار عربده جوين در طرف چپ حريف عهدشكن را
٢ - شاهد روسي نخست أزره بيداد كرد حيله هاي سرّ وعلن را
٣ - آن سان رفتار كرد با تو كه بروي هيچ نكرد خطا عقيده وظن را
٤ - ايك بت انكليس أز در اخلاص آمد وواونه كرد طرح سخن را
٥ - عهد بريتانيا نسيم صبا بود طرفه نسيمي كه سوخت سرو وسمن را
٦ - أي وزرا تا چند در گلّه ما راهنمايي كنيد گُرگ بكهن را
٧ - أي وكلا تا به كي دهيد به دشمن أز رمجلي وهوس عرض وطن را

أي:

١- انظر إلى الجانب الأيمن حيث الرفيق المعربد
وإلى الجانب الأيسر حيث الصاحب الناقض للعهد
٢ -وشاهد أولا الروس الذين سلكوا سبيل الظلم
ودبّروا المكائد ماظهر منها وما بطن
٣ -وقد عاملك بهذا الشكل وأنت
لم تسئ فيه ظنًا ولا فكرًا
٤ -أما الصنم البريطاني فمن باب الإخلاص
جاء وقَلَب مشروع كلامه
٥ -كان عهد بريطانيا نسيم صبا
وهبّة نسيم أحرقت الأخضر واليابس..
٦ -يا أيها الوزراء حتّام في قطيعنا

تسوقون الذئاب المحترفة؟

٧ -أيها النواب إلى متى تسلّمون العدو

عن جهل وهوى عروس الوطن؟

وبأسلوب ساخر يتحدث أشرف الدين الكيلاني [ولد سنة ١٨٧٠] عن الأوضاع السيئة، ويعزو كل هذه الأوضاع إلى غياب حرية الرأي وحرية القلم فيقول:

١ أي قلم پيشتي هنگامه دلشوريست دوره علم آمد، وهوكس به عوفن مشتريست

٢ تو تهمي كه أوضاع جهان خوب خوبست خوهملست وعوض گرديده إلا أي قلم

٣ - نيستي آزاد در ايران ويران أي قلم

٤ -أيها الشاعر توهم أنشوكتنا لا بثل شوعي چه ابروحمّال شورمّال بثل

٥ چشم بهي كي مين موكه قال بثل حقه بلي كي توهم ماندر دل أي قلم

٦ - نيستي آزاد در ايران ويران أي قلم

أي:

١ـ أيها القلم أظننت أنه آن أوان المعرفة

وجاء عصر العلم، وأصبح الجميع زبائن العرفان؟!

٢ - ألم تفهم بأن أوضاع العالم حمارٌ في حمار (هرج ومرج)

فالحمار هو نفسه، وإنما تغيّر سرجه أيها القلم!

٣ - لست حرًا في إيران المخروبة أيها القلم

٤ - أيها الشاعر أنت أيضًا اسكت عن قول الشعر

ماهو الشعر؟ إذهب وكن حمالاً ورمّالاً!

٥ - كن مهرّجًا على المسرح وكن (حكواتيًا)

كن مخادعًا وكن مثل الشطّار أيها القلم

٦ - لست حرًا في إيران المخروبة أيها القلم

إرادة التغيير:

وتصاعدت أمام التحديات الخارجية والداخلية إرادة التغيير وظهرت الحركات الإصلاحية في المجتمع، والدعوة إلى التطوير في الأدب.

يقول أديب الممالك معبرًا عن هذه الإرادة:

١ -أي أدبا تابه كي معطي بي أصلى مي زنشيد أبجد وكلمن را

٢ -أي شعرا چد هنه در طي فكر ليمون پستان يار وسيب ذقن را

٣ -أي عرفا چد گنزيد در أين دانه تسبيح ودام حيله وفن را

أي:

١- أيها الأدباء إلى متى تأخذون المعاني الجوفاء لتنحتوا منها أبجد وكلمن (كلمات لا معنى لها)؟

٢ - أيها الشعراء إلى متى تعكفون في فكركم على ليمون ثدي الحبيب وتفّاح ذقنة؟!

٣ - أيها العرفاء كم تنشرون في هذا الطريق حبّات المسبحة وفخ الحيل والفنون؟!

إنها ثورة على الجمود في المعاني والألفاظ، ورفض لظواهر الدجل والرياء، ولم نر مثل هذه الثورة قبل هذا العصر، مما يدل على تصاعد إرادة التغيير.

وإيرج ميرزا [ولد سنة ١٨٧٤] يرى أنه سعدي العصر، أي أن

سعدي مهما عظم فهو شاعر زمانه، ولا يجوز الوقوف عند سعدي بدعوى أنه ليس بالإمكان أفضل مما جاء به الأقدمون. بل لابد من أن يواكب الشعر الزمان.

يقول:

١ سعدي نود، چون سعدي به دهر شعر نو آورد إيرج ميرزا

٢ سعدي عصرم، اين دفتر و اين ديوانم بلوت نيست به ديوان من و دفتر

أي:

١. كان سعدي مجددًا، ومثل سعدي في زمانه
جاء بشعر جديد، (إيرج ميرزا).

٢ - سعدي عصري، وهذا دفتري وهذا ديواني
إن لم تصدق انظر إلى ديواني ودفتري

واستمرت إرادة التغيير لتخلق إبداعًا في الشعر وفي سائر ألوان الأدب، مع كل ما اعترى هذا الإبداع من قوّة وضعف.

التأثير الغربي:

أثر حروب الروس وإيران (بقيادة عباس ميرزا في عهد فتح علي شاه القاجاري) على الثقافة والأدب في إيران يشبه إلى حد كبير تأثير حملة نابليون على مصر، فقد أيقظت الإيرانيين ليستشعروا تخلّفهم، ولكن هذا الإحساس لم يقترن بمشروع نهضوي أصيل يقدمه ويعمل على تنفيذه قادة مبدئيون. بل إن هذه اليقظة اقترنت بفراغ لابد أن يملأ. وكان المشروع الجاهز لملء الفراغ هو المشروع الغربي. وكان التعامل معه - مع الأسف - تعامل المغلوب أمام الغالب. وهو تعامل يقترن عادة بالانفعال والتقليد الأعمى، ولا

يسفر في النتيجة عن حركة حضارية داخل الأمة المغلوبة. وهكذا كان الأمر لدى الإيرانيين، كما كان عند العرب في زمن محمد علي باشا وبعده.

ظهر هذا الانفعال في إيران على يد الإيرانيين القاطنين خارج الوطن بشكل خاص، وأذكر منهم عبد الرحيم طالبوف [ولد سنة ١٨٣٠] صاحب كتاب *أحمد* وكتاب *مسالك المحسنين*، والحاج زين العابدين مراغه‌اي [ولد سنة ١٨٣٥] صاحب كتاب *سياحتنامه إبراهيم بيك*، وميرزا ملكم خان صاحب الرسائل النقدية الكثيرة ومدير صحيفة (قانون) [ولد سنة ١٨٢٩]، وميرزا فتح علي آخوند زاده [ولد سنة ١٨١٢] المسرحي الناقد وصاحب الرسائل النقدية الكثيرة.

ويلاحظ في هذه الكتابات غالبًا رفض كل ماهو موجود في إيران من دين وتراث وعادات وتقاليد، وقبول كل ماهو غربي، وهذا هو الانفعال الناتج عن غياب مشروع أصيل للنهضة.

ويلاحظ أيضًا اهتمام هؤلاء بالارتباط بالمحافل الماسونية الغربية وسعيهم لتأسيس هذه المحافل في إيران.

وأقف قليلاً عند بعض أفكار واحد من هؤلاء، فهي تمثل تجربة الهزيمة القاسية، وتبين طبيعة هذه الهزيمة وتوجهاتها.

ميرزا فتح علي آخوند زاده رائد كتابة المسرحية والقصة الأوروبية في الشرق كما يقول عنه فريدون آدميّت. وفريدون هذا من المهتمين بدراسة روّاد التغرّب في إيران ومن المتحمّسين لهم والمروّجين لأفكارهم.

في كتابه *انديشه هاي ميرزا فتح علي آخوندزاده* = أفكار... يقول:

«إنّ هذا الرجل: منظّر القومية الإيرانية ناقد السياسة والدين، والمؤمن بانفصال السياسة عن الدين انفصالًا مطلقًا.. »[الكتاب المذكور، ص ١٦].

والواقع أنه ماكان مؤمنًا بالقومية الإيرانية بقدر ماكان حاقدًا على الإسلام، وبالتالي حاقدًا على العرب وعلى الخط العربي، ولذلك فهو أول من دعا إلى استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي. ودافعه في ذلك ننقله على لسان فريدون آدميّت (المدافع عنه) إذ يقول: «يمكننا بنظرة سريعة أن نفهم الدافع في ذلك (في الدعوة إلى تغيير الخط العربي) إنه كراهية الكاتب للعنصر العربي وما يرتبط بالعرب» وينقل آدميّت عن آخوندزاده مايؤيد هذه الكراهية، ولا ننقله ترفعًا عن ذكره. [الكتاب المذكور، ص ٧٦].

من هنا نستطيع أن نفهم بوضوح ارتباط التوجه الإسلامي في إيران بحب العرب والعربية، والصلة الواضحة بين التغرّب وكراهية العرب. وليت المثقفين العرب يفهمون هذه الحقيقة في مواقفهم من إيران.

الشيخ محمد تقي القمي
وهم التقريب بين المذاهب الإسلامية

عبدالكريم بي آزار شيرازي*

• كان أعداء الإسلام قد نجحوا في خلق حواجز ضخمة بين المذاهب • قرر القمي أن يتحرّك لكسر حواجز العزلة بين السنّة والشيعة • كان يعاني بشدّة من شظف العيش وقلّة المال • كان الشيخ شلتوت مؤمنًا بأن الشيخ القمي ماجاء إلى القاهرة في طلب مال ومتاع.

كان لي من الشيخ محمد تقي القمي مؤسس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية أحاديث كثيرة في مناسبات عديدة. من تلك أنه حدثني عن دافعه في إنشاء دار التقريب وذهابه إلى مصر وكيف بدأ عمله فقال: إن ثمة ظروفًا تجمعت في العالم الإسلامي آنذاك جعلت الصراع الطائفي بين أهل السنّة والشيعة على أشدّه. كان الجوّ مفعمًا بين الفريقين بعدم الثقة والتوتر والتخاصم والشبهات، وكان أعداء

* - رئيس جامعة المذاهب الإسلامية - طهران.

الإسلام قد نجحوا في خلق حواجز ضخمة بين المذاهب، يتراشق أصحابها التهم بينهم، دون أن يفكروا في الجلوس على طاولة واحدة ليسمع كل منهم حديث الآخر بمعزل عن الطعن والتجريح والتشنّج.

مقتل السيد اليزدي

ثم حدثت حادثة هزّت كل المخلصين، واستحثت كل المهتمين بمصير الأمة الإسلامية. لقد أُعلن نبأ إعدام إيراني من أبناء رسول اللّه(صلى اللّه عليه وآله) هو السيد أبو طالب اليزدي في موسم الحج بأرض الحجاز بتهمة إهانة الكعبة!! وانشدّت الأنظار إلى السعودية لتستطلع الخبر. فجاء التحقيق مذهلاً مؤلمًا يعبّر عن جوّ فظيع من انعدام الثقة والشبهة والتهمة بين المسلمين.

تبيّن أنّ الرجل أصيب في الطواف بحالة غثيان، فأراد الخروج من بين الطائفين، لكنه لم يتمالك نفسه، حرص على أن لا يلوّث أرض المسجد، فجمع ثيابه وألقى قيأه فيه. ثم أسرع للخروج، فاستوقفه شرطي وسأله عمّا يحمله، فلما رأى ما رأى ولم يفهم من السيد أبو طالب توضيحاته بالفارسية، أخذه وسلّمه إلى القضاء. وهناك أيضًا لم يفهموا ما يقوله السيد، فأفرزت ذهنيات القضاة هناك مايلي: إن هذا الرجل إيراني، والإيرانيون عادة لا يحجون بيت اللّه الحرام بل يحجون كربلاء والنجف!! وإنما يأتون إلى بيت اللّه الحرام بقصد إهانته!! وما يحمله هذا الإيراني إنما كان يستهدف به تنجيس الكعبة!! ثم حكموا عليه بالإعدام .. وضربوا عنقه!!

هذا نموذج واضح على نجاح الخطة الاستعمارية في إيجاد فصل نفسي وشعوري واعتقادي بين المسلمين.

هذا الحادث هزّ الشيخ القمي ، كما هزّ الكثيرين من أبناء العالم الإسلامي، **لكنه لم يحرّكه في اتجاه سلبي.. لم يدفعه إلى الانتقام من القَتَلة، بل إلى الانتقام من الجهل والفرقة وكل العوامل التي أدّت إلى هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر المؤلمة.**

فكّر في الأمر مليًا، وقرر أن يتحرّك لكسر حواجز العزلة بين السنّة والشيعة، وكان لابدّ أن يكون هذا التحرك في مركز قادر على أن يشعّ بتأثيره على كل العالم الإسلامي. وليس أفضل لهذا الأمر من الأزهر والقاهرة.

السفر إلى لبنان

هذا المشروع يحتاج أولاً إلى تعلّم اللغة العربية، فالشيخ القمي درس العربية صرفها ونحوها وبلاغتها في الحوزة العلمية، ولكنه لا يجيد التحدث والتخاطب بها. ذهب بهدف تعلم اللغة العربية إلى لبنان، وأقام في قرية لبنانية يعاشر أدباءها وشيوخها، ويعكف ليل نهار على التحدث باللغة العربية لمدة ٧ أو ٨ أشهر.

ومن ذكرياته عن تلك القرية اللبنانية ما يحمله عن رجل دين مسيحي يحبّه كل أبناء القرية، ما إن يخرج إلى الشارع حتى يجتمع حوله الناس يحيونه ويقبلون يده، سألته عن سرّ شعبيته هذه، قال لي وأشار إلى كنيسة القرية وبجوارها مدرسة: السبب هو هذا. نحن ننشئ

إلى جانب كل كنيسة مدرسة. فنربّي فيها أبناء القرية ونرتبط بهم فيها فكريًا وعاطفيًا وروحيًا. يقول الشيخ القمي: عدت إلى نفسي حين سمعت كلمة هذا الشيخ المسيحي، وفهمت سرّ تطور حضارتنا الإسلامية في عصورها الذهبية، حين كان التعليم لا ينفصل عن المسجد. وهذا ما دعا الشيخ القمي لأن يكتب فيما بعد مقاله في *رسالة الإسلام* «ليكن شعارنا: المدرسة بجانب المسجد»[1]. وفيه يركز على أهمية التحام العلم بالإيمان، حتى يثمر عطاء العلم ويثمر عطاء الإيمان.

الرحيل إلى مصر

ويترك لبنان ويرحل إلى مصر، فيتصل أول ما يتصل **بالشيخ محمد المراغي الكبير**، وكان يومذاك شيخ الأزهر الشريف. يبثّ إليه شكواه، وينفث عنده ما في صدره من هموم، ويصف له ما آلت إليه حال المسلمين بسبب تفرّقهم وتشتّتهم، ويطرح عليه فكرة التواصل بين المذاهب الإسلامية، والتعارف بينها. ويتجاوب معه الشيخ المراغي كل التجاوب، ويقترح على الشيخ القمي أن يبدأ عمله من التدريس في الأزهر، وأن يبدأ من تدريس الفلسفة. يبدأ بالتدريس ويشتغل ردحًا من وقته في مكتبة الجامعة.

استأجر بيتًا متواضعًا بسيطًا لسكنه ولنشاطه العلمي (أصبح فيما بعد مقرّ دار التقريب في القاهرة)، وكان يعيش على ما جاء به من

١- العدد المتسلسل ٣١، ص ٢٤١ (العدد الثالث من السنة الثامنة).

مال، وعلى ما يُرسل إليه من إيران، عيشة قناعة وكفاف. وأمّا ما يحصل عليه من مال مقابل تدريسه وعمله المكتبي فيوزعه على مستخدمي الجامعة. وحينما زرت الدار في القاهرة كانت على حالتها من البساطة والتواضع، غير أنه أُلحق بها مكتبة ومطبعة صغيرة. وكان الشيخ القمي وأسرته يسكنون في الطابق العلوي لهذا البيت.

كان الشيخ المراغي مصيبًا في اقتراحه التدريس بالأزهر فلقد وفّر للشيخ القمي فرصة الاتصال بفئة كبيرة من العلماء والأدباء والمثقفين الذين أعجبوا بشخصيته العلمية، وباتزانه وخُلُقه ورجاحة عقله وإخلاصه ومودّته.

بالمناسبة كان الشيخ القمي ذا قامة ممشوقة مهيبة، ووجه مشرق بشّاش ، ومنطق رصين متّزن، وخلق كريم جذّاب، وكان ذلك من عوامل نجاحه في دعوته.

نشاط في كفاف وعفاف

ظلّ الشيخ ينشر فكرته بين مختلف فئات العلماء والمثقفين، وحظي بشهرة مرموقة في كل الأوساط. غير أنه كان يعاني بشدّة من شظف العيش وقلّة المال. كانت أسرته في إيران موسرة نسبيًا، وتمدّه بما يحتاجه من المال، لكن الظروف لم تكن مهيئة لوصول المال بشكل منظّم. وفي فترة عصيبة من فترات قلّة ذات اليد اتصلتْ به سفارة غربية في القاهرة ، ودعته. استجاب للدعوة، شرح هناك أهدافه ومقاصده، فقدّم إليه السفير مبلغًا مغريًا من المال دعمًا لمشروعه. فوجئ الشيخ

بهذا العرض، خاصة وأنه يأتي في ظروف الحاجة الشديدة. لكنه بعد تريّث بسيط، بادر إلى مخاطبة السفير: **إنني أحتاج إلى المال أشدّ الاحتياج، لكني أرفض أخذ أي شيء من هذا، كي لا تدور حول الدعوة أية شبهة**. والغريب أن الشيخ القمي رفض أن يقبض المبلغ في وقت كان جيبه يخلو حتى من المليم الواحد. هو يقول: رجعت من السفارة إلى البيت راجلاً، لعدم قدرتي على دفع أجور عربة!

واصل الشيخ القمي عمله الجامعي ، وعن هذا الطريق أنشأ علاقات واسعة مع الأساتذة والعلماء ، وكانت الجلسات تتوالى في بيته أو في أروقة الجامعة، تُطرح فيها هموم المسلمين، ومشكلة الطائفية، والشبهات المذهبية، وتدور أحاديث شيقة، نضّجت فكرة التقريب، وزادت من عدد المؤمنين بها.

كان الشيخ المراغي خلال كل هذه المدّة يبذل الجهد لإنجاح مهمة الشيخ القمي. وكان مما فعله أن عرّف الشيخ القمي بطائفة من العلماء الذين يحملون هموم وحدة المسلمين ونبذ التفرقة بينهم، منهم الشيخ **مصطفى عبد الرازق** الذي أصبح فيما بعد شيخًا للأزهر، والشيخ **عبد المجيد سليم**، والشيخ **محمود شلتوت** وكلاهما أيضا تولّيا مشيخة الأزهر فيما بعد، والشيخ **محمد محمد المدني**، والشيخ **محمد علي علوبه باشا**، ثم اختار الشيخ القمي جمعًا آخر فيهم الشيخ **حسن البنا** والشيخ **عبد العزيز عيسى**، والشيخ **علي المؤيد** من اليمن و**السيد الآلوسي** نجل صاحب تفسير *روح المعاني*. ومن هذا الجمع تشكلت النواة الأولى لجماعة التقريب، وأقامت هذه الجماعة مؤسسة هي «دار

التقريب»، واتخذت هذه المؤسسة المباركة من بيت الشيخ القمي المتواضع مقرًا لأعمالها.

يقول الشيخ القمي: اخترت من بين أعضاء الجماعة فردًا معروفًا بتعصّبه لمذهبه ومعارضًا لأية فكرة تقريب مع الشيعة. حين علم الشيخ المراغي بذلك أرسل إليّ وسألني مندهشًا: لماذا اخترت هذا الرجل؟ قلت له: **أنا اخترته على علم بتعصّبه، لأننا نريد في الجماعة شخصًا يطرح الاعتراضات، فإن كانت حقًا أخذنا بها وصحّحنا مسيرنا، وإن كانت مجرّد شبهات فإننا نتصدّى للإجابة عليها بشكل غير مباشر قبل أن تنتشر بين الناس**. انشرحت أسارير الرجل حين سمع جوابي، وقال والفرح يغمره: أبارك لك هذا التفكير وهذا الانفتاح. وأنت بهذا الخصائص سوف تنجح في دعوتك حتمًا.

وإذا راجعت مجلة *رسالة الإسلام* تجد فيها صدى ما فعلته هذه الجماعة وكان أفرادها لا يزيدون على العشرين، كما تجد النشاطات التي أدتها، والدستور الذي دونته لمؤسستها.

مع الشيخ عبد المجيد سليم

من الشخصيات التي برزت بين جماعة التقريب الشيخ عبد المجيد سليم. كان رجلاً كبيرًا في علمه وشخصيته وإخلاصه. قال عنه الشيخ المراغي: **لو كان أبو حنيفة حيًا لما استخلف على مدرسته الفقهية سوى الشيخ عبد المجيد سليم**، لإلمامه الكامل بالفقه الحنفي ولدقته وسعة علمه. ولما كان يمتاز به من صفات نبيلة انتخب لمشيخة الأزهر دورتين.

في أحاديث الشيخ عبد المجيد سليم وكتاباته يظهر بوضوح ما كان يحمله من عواطف لآل بيت رسول اللّه(صلى اللّه عليه وآله). كان يستشعر الألم الشديد وهو يراجع ذاكرته التاريخية بشأن ما عاناه أهل البيت وأتباعهم من ظلم وسجن وتشريد وتعذيب وتقتيل خلال قرون الحكم الأموي والعبّاسي . وكان يسعى إلى رفع هذا الظلم التاريخي عن مدرسة أهل البيت وأتباعهم. وهذا هو سرّ إصراره على إزالة حواجز العزلة بين السنة والشيعة. اهتمامه بأمر التقريب جعله مرتبطًا بالجماعة ارتباطًا وثيقًا حتى بعد اعتلائه مشيخة الأزهر الشريف. وكان توقيعه يحمل دائمًا لقب: شيخ الأزهر ووكيل جماعة التقريب.

والشيخ عبد المجيد سليم أول من راسل الإمام آقا حسين البروجردي في قم وهي مراسلة هامة للغاية بين أكبر شخصيتين سنية وشيعية آنئذ. وظلت هذه المراسلات تتوالى عن طريق الشيخ القمي أو المسافرين بين مصر وإيران. وكان السيد البروجردي يردّ على رسائله بكل إجلال واحترام.

وفي مرّة أرسل السيد البروجردي كتاب *المبسوط* للشيخ الطوسي، وهو دورة كاملة في فقه الشيعة إلى الشيخ عبد المجيد سليم. أعجب الشيخ بالكتاب أيّما إعجاب، وكان يقول: متى ما أردت أن أشارك في جلسة استفتاء أراجع كتاب *المبسوط*، وكان لاطلاعه الواسع على فقه الشيعة أثر في فتاواه الفقهية التي تتجلّى فيها روح التقريب.

من ذكرياته عن الشيخ عبدالمجيد سليم

كان لتعرف الشيخ عبد المجيد سليم على فقه الشيعة وفهمه

لأصول هذا الفقه وسعة أبعاده وقربه من روح الشريعة أثر كبير على اتجاه نشاطات الشيخ. فقد نشر في جوّ الأزهر الفقه المقارن، ثم رأى الجوّ مهيئًا لصدور فتوى جواز التعبّد بفقه الشيعة. وكان ذلك قبل عشر سنوات من صدور فتوى الشيخ شلتوت بهذا الشأن.

هيّأ الشيخ أذهان جماعة التقريب وأفكارهم لهذا الأمر. وتقرر دراسة صيغة الفتوى في جلسة معيّنة. وقبل أسبوع من تلك الجلسة المقررة وصلت إلى جميع أعضاء جماعة التقريب طرود بريدية مبعوثة من عواصم أوربية مختلفة، أُرسلت على عناوينهم في محلّ عملهم، وأرسل نظيرها على عنوانهم في بيوتهم، وهي تحمل ما ينسف فكرة إصدار الفتوى.

الأمر عجيب، والتخطيط دقيق، ومتابعة القوى الشيطانية لنشاط التقريب حثيث. في توقيت دقيق تحركت هذه القوى للوقوف بوجه خطوة هامة من خطوات التقريب.

حضر الأعضاء في الجلسة المقررة وهم يحملون تلك الطرود، والغضب باد على وجوههم، وجلس الشيخ عبد المجيد في مقدمة المجلس. وإذا بالأعضاء يرفعون صوتهم دفعة واحدة، ويتحدثون بلهجة غاضبة قائلين: أتريدون أن نصدر فتوى في جواز العمل بفقه الشيعة وهم يعادون الصحابة! ثم فتح كل منهم طرده وأخرج منه كتابًا منسوبًا إلى أحد علماء الشيعة يتحامل فيه على الخليفتين الأول والثاني. وقالوا: هذه وثيقة تبين طبيعة الشيعة وأفكارهم تجاه الخلفاء فماذا تقولون؟

يقول الشيخ القمي: استولى عليّ الوجوم، فما عدت قادرًا على

الكلام في هذا الجوّ المتشنّج. نظرت إلى الشيخ عبد المجيد فرأيته ينظر إلى كل واحد من المتكلمين بهدوء وطمأنينة كأنه يريد أن يستفرغ منهم شحنة غضبهم. وعندما تكلّم الجميع وساد الجوّ هدوء نسبي، تناول الشيخ سليم الحديث وقال باتزان ووقار: **هلاّ سألتم أنفسكم من أين جاءت هذه الطرود؟ وما هو هدف مرسليها؟ ولماذا أرسلوها في هذا الوقت بالذات؟ ثم استرسل في الحديث قائلاً: لو أن الشيعة والسنّة لم يكن بينهما اختلاف لما احتجنا إلى التقريب وإلى جماعة التقريب ودار التقريب ومجلة *رسالة الإسلام*. لكننا بعد علمنا بوجود الاختلاف نهضنا بهذا المشروع، كي نركز على المشتركات ونقلّل الاختلافات ونزيل الشبهات. ثم انظروا إلى هذه الأيدي التي فعلت فعلتها بطباعة كتاب يثير حساسيات أهل السنّة تجاه الشيعة في أوربا، وأرسلته في هذا الوقت الحساس إليكم، أهي حادبة على أهل السنّة؟ أيهمّها مصلحة المسلمين؟**

وهلاّ سألتم أنفسكم عن صحة نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه؟ ولو قُدّر أن هذه النسبة صحيحة، فهل ماجاء فيه يخرج المسلم من دائرة الإسلام ويفكه من رباط الأخوة الإسلامية؟! واسترسل يتحدّث بلغة رصينة مستحكمة. هدأ الجوّ، ولكنّ صدور الفتوى تأخر عشر سنوات حين أقدم الشيخ محمود شلتوت على تنفيذ المشروع.

ومن المشاريع التقريبية التي نهض بها الشيخ عبد المجيد سليم إدخال تفسير ***مجمع البيان*** إلى ساحة العالم الإسلامي. حين اطلع الشيخ على هذا التفسير وجد فيه بغيته، رآه التفسير الذي يجمع بين العمق

العلمي، والسعة والشمول، والوضوح والمنهجية، والابتعاد عن التعصب، والجمع بين آراء أهل السنة والشيعة. فكتب إلى دار التقريب رسالة يشيد بهذا التفسير ويستحث الجماعة على طباعته. وكتب في مقدمته على هذا التفسير: هو كتاب جليل الشأن غزير العلم كثير الفوائد، حسن الترتيب. لا أحسبني مبالغًا إذا قلت إنه في مقدمة كتب التفسير التي تعدّ مراجع لعلومه وبحوثه.

وهذا الحثّ دفع الشيخ محمود شلتوت أن يطالع هذا التفسير بإمعان، فشُغف به حبًا، وولع به ولعًا يتضح من المقدمة التاريخية التي دوّنها لهذا التفسير. تقرّر طباعته، وعلى مدى أعوام طبع هذا التفسير أفضل طبعة تتصدرها رسالة الشيخ سليم ومقدمة الشيخ شلتوت.

مع الشيخ محمود شلتوت

والشيخ شلتوت كان عالمًا مفسّرًا أديبًا عاملاً ورث عن أستاذه الشيخ عبدالمجيد سليم إخلاصه وعلمه وروحه التقريبية. وكان يجلّ أستاذه ويحترمه ويقوم له في المجلس ويقبل يده.

خصّ كلّ جزء من أجزاء مجلة *رسالة الإسلام* بحلقة من التفسير يجمع فيها بين الوضوح والعمق والأصالة والمعاصرة. كان يكتب بروح الأزهر وبلغة العصر. ثم جمعت هذه الحلقات في كتاب وطبع فيما بعد.

ويلاحظ أن كل أعداد المجلة تحمل حلقة من تفسير الشيخ شلتوت، سوى عددين، كَتَب التفسير فيهما الشيخ محمد محمد المدني. وسبب انقطاع الشيخ عن كتابة التفسير في هذين العددين خلاف دار بينه وبين الشيخ محمد تقي القمي حول مسألة البناء على القبور.

ومعروف أن الاتجاه السلفي يرفض بناء الأضرحة والقباب على القبور عامة، بينما يجيزها غيرهم من أهل السنة والشيعة على قبور الأولياء والصالحين كي تكون مشاهدهم منارًا يوحي بأفكارهم ومواقفهم وسلوكهم. فالكراهية الشرعيّة موجودة في بناء عامة القبور لا الحرمة، لكن قبور أئمة المسلمين وأولياء اللّه الصالحين لها شأن آخر في رأي غير السلفيين.

هذه كانت نقطة الخلاف بين الشيخين. وأدت إلى قطيعة استمرت عدة أشهر، لكن سرعان ما عادت الأمور إلى مجاريها الطبيعية، إذ أحسّ الرجل الكبير شلتوت بضآلة حجم الخلاف وعدم أهميته، وعاد واعتذر إلى الشيخ القمي، وواصل الكتابة في المجلة والتعاون مع الجماعة.

في عيادة الشيخ القمي

كان الشيخ شلتوت مؤمنًا بأن الشيخ القمي ماجاء إلى القاهرة في طلب مال ومتاع، وما جاء ليروّج فكرة مذهبية، بل ليتعالى المسلمون على الروح الطائفية ويرتفعوا إلى الحالة الإسلامية. لقد شاهد بأم عينيه بساطة حياة الشيخ القمي وأعجب بها. وفي مرّة مرض الشيخ القمي، فجاء الشيخ شلتوت مع جماعة من علماء الأزهر لزيارته في مسكنه ودون أن يعلم الشيخ القمي. صعد الشيوخ إلى غرفة سكنه في دار التقريب، فاندهشوا لما رأوه. وجدوا الرجل يضطجع على سرير خشبي صغير، يتوسّد عمامته، ويفترش قباءه ويتغطى بعباءته. خجل الشيخ القمي من الحالة، واعتذر إليهم، لكنّ الشيخ شلتوت راح يغدق عليه

عبارات الثناء والإعجاب وقال: أشهد أن هذه هي حياة سيدنا عمر.

وإعجاب الشيخ شلتوت هذا جعل منه صديقًا حميمًا للشيخ القمي، حتى أنه كان يشترك في مجلس تلاوة دعاء كميل الذي كان يعقده الشيخ القمي مع جمع من شيعة القاهرة في الدار ليالي الجمعة.

ومن العلوم التي اضطلع بها الشيخ شلتوت الفقه، وكان يمتاز في اتجاهه الفقهي بالانفتاح والعمق والمعاصرة أيضًا. وانفتاحه دفعه إلى الاهتمام بالفقه المقارن، وأقرّ تدريس الفقه المقارن في الأزهر، وكان مذهبه في الفقه اتّباع أقوى الأدلة في المسألة، ولذلك انفتح على فقه الشيعة، وأخذ منه ما رآه قويًا بالدليل، مناسبًا للمجتمع. وأدخل بعض آراء فقه الشيعة في قوانين مصر، مثل قانون الطلاق .

مشروع شلتوت ـ القمي

ومن مظاهر الروح التقريبية لدى الشيخ شلتوت ارتباطه بمراجع الشيعة وهو على رأس مشيخة الأزهر. فقد راسل السيد البروجردي في قم وراسل السيد محسن الحكيم في النجف. وفي عهده بدأ العمل بتنفيذ مشروع شلتوت - القمي، ويقضي بجمع أحاديث السنة والشيعة في الموضوعات المختلفة، وهو عمل تقريبي هام يوفّر للباحثين سبل التحقيق، ويوضّح ما بين الفريقين من تقارب في السنّة بعد اتفاقهما الكامل على كتاب اللّه تعالى. كان المشرف على تنفيذ المشروع الشيخ محمد محمد المدني، وبعد وفاته(رحمه اللّه) توقّف. وأخيرًا اجتمع عدد من تلاميذ المرحوم الشيخ شلتوت الذين تربّوا تربية تقريبية على يديه، ليواصلوا هذه الأطروحة.

منهج سيد قطب في وحدة المسلمين

محمد الدسوقي*

• كان سيد قطب يؤكد دائمًا على وجوب الأخذ بالأسلوب القرآني في دراسة العقيدة • كان يرى أن التنازع يُفقد الأمة خصائصها التي جعلتها خير أمة أخرجت للناس • حديث سيد قطب عن الكتلة الإسلامية يحيي في النفوس شعور العزّة الإسلامية • بعث سيد إلى أية الله الكاشاني بمناسبة تأميم النفط رسالة أعرب فيها عن روح التضامن الإسلامي.

من يقرأ مؤلفات سيد قطب – وعلى رأسها كتاب *في ظلال القرآن* – فإنه يلاحظ أن منهج هذا المفكر في تحقيق الوحدة الإسلاميّة والتقارب بين المذاهب الفقهية والفرق الكلامية يقوم على عدة دعائم، من أهمها:

أولاً: أن العقيدة الإسلاميّة ـ عقيدة التوحيد والوحدة، والأخوة

* – أستاذ جامعي مصري.

والتكافل والمودة ـ هي الأساس الراسخ الذي ينهض عليه كيان الأمة، ويتحقق به عزتها وكرامتها، ومن ثم كان وقاية هذه العقيدة كل عوامل الزيغ والضعف هو السبيل لأن تظل العقيدة الإسلاميّة القوة التي تجمع تحت لوائها كل المؤمنين بها. ومن هنا كان سيد قطب يرفض كل ما أخذ به الفلاسفة والمتكلمون من مناهج عقيمة في دراسة العقيدة، كان يرى ـ وهو على حق في هذا ـ أن تلك المناهج فرقت الأمة ولم تحم العقيدة من أسباب الانحراف والفساد، وكان لذلك يؤكد دائمًا على وجوب الأخذ بالأسلوب القرآني في دراسة العقيدة. فهذا الأسلوب مزاج من الفكر والوجدان، والعقل والشعور. والإنسان ليس عقلا صرفًا ولا وجدانًا صرفًا، فمخاطبته وفق فطرته التي فطرها الله عليها هو أقصر طريق لصحة الإيمان وسلامة اليقين.

لقد دعا سيد قطب إلى نبذ مناهج الفلاسفة وبيّن أنها مناهج دخيلة على الفكر الإسلامي، وأن المحافظة على أصالة هذا الفكر وصفائه ونقائه تقتضي الرجوع إلى المنهج القرآني في دراسة العقيدة، حتى تظلّ العقيدة حية نقية من كل الشوائب، تقود الأمة إلى حياة العبودية الخالصة لله رب العالمين، وحياة الاعتصام الصحيح بحبل الله، وحياة الأخوة الإسلاميّة بمفهومها الشامل، وبهذا تكون الأمة بنيانًا مرصوصًا، أو جسدًا واحدًا يشد بعضه بعضًا.

ثانيًا: ومع دعوة سيد قطب إلى دراسة العقيدة الإسلاميّة وفق

المنهج القرآني وبعيدًا عن تعقيدات علماء الكلام والفلاسفة كان يحرص أبلغ الحرص على أن تسترشد الأمة بالعصور الزاهرة في تأريخها، وألا تجترَّ ما انتهت إليه عصور الضعف والتخلّف من المفاهيم والأحكام الباطلة. فهذه العصور ينبغي على الأمة إلاّ تقف عندها إلا لأخذ العظة فيها، بمعنى: أن تدرسها لتعرف الأسباب والعوامل التي دفعت بالأمة إلى أن تتخلى عن الصدارة والقيادة، وترضى بحياة الوهن والتقليد، حتى لا تتعرض مرة أخرى لهذه العوامل لتنهض من جديد تعيد تاريخها المشرق بالقوة والفضيلة والحضارة.

ثالثا: وكان من منهج قطب في جمع كلمة الأمة: العناية الخاصة ببيان ما تميزت به الأمة الإسلاميّة من وحدة العقيدة، ووحدة الغاية، ووحدة المنهج، ووحدة التصور لمهمة الإنسان في الحياة، ففي هذا البيان مقاومة لكل أسباب التمزق والتفرق، والصراع والتنازع الذي لا يرتد على الأمة إلا بالبوار، فضلاً عن أنه يحصّن الأمة وينبهها إلى أن تفيء إلى قيمها الخالدة، وخصائصها الربانية السامية، فلا تعتصم بغيرها، ولا تضيّع وقتها في هذا النظر إلى هنا وهناك، ولا تغترّ بما يموّه به عليها شياطين الإنس والجن من وسائل الضلال والانحلال، وبذلك تبقى لها أصالتها وقوتها، وكرامتها وعزتها.

وكان سيد قطب يوضح عواقب التنازع والاختلاف، ويؤكد أن الأمة التي يسود فيها الجدل بغير التي هي أحسن، والتي ينزغ

الشيطان بين أبنائها، والتي تستبد بها نوازع العصبية والإقليمية، والتي يتصارع أفرادها لأتفه الأسباب، ويتقاتلون باللسان والسنان، تصبح لقمة سائغة لعدوها، وتفقد كل الخصائص التي من أجلها كانت خير أمة أخرجت للناس.

رابعًا: وإذا كانت ظروف العالم الإسلامي في منتصف القرن الثالث عشر الهجري قد قضت عليه بالخضوع للهيمنة الأجنبية وبالتخلف الحضاري فإن قطب كان لا يرى في هذه الظروف عائقًا يحول دون الوحدة الجامعة لهذا العالم، فهو بامتداده شرقًا وغربًا، وبموقعه الجغرافي المتميز، وبما أفاء الله عليه من الخير المادي، وبتماسكه الروحي والمعنوي - على الرغم من تفرقه السياسي - يمثل كتلة متميزة تقف في مواجهة التكتل السياسي والفكري المعاصر برصيد لا نظير له من القيم والمبادئ.

ومن هنا، كثر حديث سيد قطب عن الكتلة الإسلاميّة، وأنها حقيقة ملموسة، وأنها وحدها هي صمام الأمن للبشرية قاطبة؛ لأنها تملك المنهج الصحيح لقيادة الحياة، وأن سواها من الكتلة الشرقية أو الغربية لا تملك هذا المنهج، بل يحكمها التصور المادي والصراع الطبقي، والتمييز العنصري، ومن ثم كانت كل الدعاوى التي تصدر عن قادة هاتين الكلمتين لا تعرف الصدق، وهي لون من ألوان النفاق السياسي والتضليل الفكري، وتخدير الضعفاء حتى يستسلموا للحياة المهانة والدنية والتخلف والعبودية.

إن اهتمام قطب بالحديث عن الكتلة الإسلاميّة هو لون من ألوان منهجه وأسلوبه في تحقيق الوحدة، فهذا الاهتمام يحيي في النفوس شعور العزة الإسلاميّة، ويوقظ في الضمائر معاني الأخوة الصادقة ومسؤولية التعاون على الخير والبر، وبذلك يصبح كل مسلم مهما يكن موقعه جنديًا مدافعًا عن كيانه، يبذل من نفسه وماله لكي تكون هذه الكتلة ليست مجرد شعور روحي يربط بين المسلمين، وإنما تصبح إلى هذا قوة دولية لها تأثيرها الفاعل ودورها البارز في حماية السلام العالمي، والقضاء على كل ألوان الظلم والامتهان لكرامة الإنسان.

خامسًا: وقطب الذي حارب منهاج المتكلمين والفلاسفة بما تحمل من غثاء فكري، والذي دعا الأمة إلى أن تتجاوز مرحلة الضعف في تاريخها بما تحمله من مفاهيم وآراء مزقت وبددت الطاقات، والذي أكد على شخصية الأمة الإسلاميّة، وبيّن أنها شخصية متميزة تصدع بالحق في دنيا الناس، ولا تعرف التنازع والتفرق، وإنما تعرف الوحدة والقوة، والذي أكد أيضًا على أن العالم الإسلامي يمثل كتلة دولية لها وزنها وقيمها كان - إلى هذا كله - يحارب في نفوس الأمة عوامل القنوط. فالظلام لابد أن يعقبه الضياء، والعسر لابد أن يأتي بعده اليسر، والضيق ينتهي بالفرج.

ولهذا كان من منهجه: أن يثبت بالدليل العلمي أن كل الأفكار البشرية التي يغتربها من لا فقه لهم بالإسلام مآلها

البوار، وأن المستقبل وحده للإسلام. وكان يرى أن الفكر المادي الإلحادي الشيوعي سينهار أولاً، ثم يليه الفكر الرأسمالي.

وقد حدث ما ذهب إليه الرجل بعد وفاته بنحو ربع قرن، وسيحدث أيضًا الانهيار بالنسبة للفكر الرأسمالي الغربي مهما طال به الأمر. وهذا يعني: إفلاس كل النظم البشرية، ولن ينقذ الناس من فوضى المناهج والنظريات الوضعية إلا الإسلام، وحتى يتحقق ذلك يجب على المؤمنين بهذا الدين أن يكونوا في حياتهم وفي علاقاتهم صورة حية واقعية لهذا الدين، حتى يقودوا غيرهم إليه، ويكونوا دائمًا روادًا على طريق الحق والخير للناس كاف».

ثقافة التقريب: إضافة لما قاله الدكتور الدسوقي:

سادسًا: إن سيد قطب عاش في عصر تصاعد المشروع القومي العربي. وكان بإمكان هذا المشروع لو التزم بالأسس الإنسانية أن يوحّد الأمة ويفجّر الطاقات، ويرفع بالعالم العربي إلى مصاف البلدان المتطورة، لكنه امتزج مع الأسف بما حوّله إلى عامل تمزيق وتشتيت وتخلّف، من ذلك أنه اصطدم بالمشروع الديني، وتحوّل إلى شعار يكرّس ذاتية هذا الزعيم وذلك الحزب، وتحوّل خطابه إلى خطاب معاد للقوميات الأخرى.

لقد أدرك سيد قطب ما انجرّ إليه هذا المشروع فراح يعلن رفضه له، ويصوّره بأنه عودة إلى روح الجاهليّة، وأنه معول تمزيق للعالم الإسلامي.

سابعًا: في كتاب *العدالة الاجتماعية في الإسلام* اقترب سيد

قطب من منهج منفتح في معالجة التاريخ والتراث. إذ انتقد ما ظهر من تمييز طبقي وعنصري في زمن الخليفة عثمان، واعتبره معارضًا للإسلام، ودافع على طريقة أبي ذر عن العدالة الاجتماعية في الإسلام، وهذا ما جعله عرضة لانتقاد المتعصبين[1].

ثامنًا: كان سيد قطب يتجاوب مع كل تحرّك يستهدف استعادة عزّة المسلمين وقوّتهم ووقوفهم بوجه الأطماع الأجنبية بغضّ النظر عن المذهب والقوميّة. من ذلك تجاوبه مع حركة تأميم النفط في إيران بقيادة آية الله الكاشاني. فقد كتب إلى الكاشاني رسالة أعرب فيها عن مشاعره الطافحة بالعزّة والكرامة والفرحة تجاه تحرّك الأمة في إيران لاستعادة حقوقها. وهذا نصّ الرسالة:

رسالة سيد قطب إلى آية الله الكاشاني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آية الله الكاشاني:

ها هي بوارق الأمل تلمع في الأفق بالرغم من جميع الغيوم التي راحت تتلبّد في السماء لتنشر الظلام. نعم، إنّ آفاق الوطن الإسلامي تلوح بتباشير أمل العودة إلى الإسلام.. المسلمون في هذه الأيّام بدأوا يتوجّهون نحو الإسلام قليلاً قليلاً، الإسلام هو

---

١ - انظر: *مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله*، ربيع بن هادي العميري المدخلي.

الحصن الذي عندما ابتعد عنه المسلمون فقدوا مكانتهم وعزّتهم، وها هم المسلمون يعودون إلى الإسلام، ويسعون في رفع شعاره في أرجاء المعمورة. ليس فقط علماء وطلاب المراكز الدينية هم الذين يدعون إلى وحدة العالم الإسلامي وتشكيل جبهة قوية، وليسوا فقط هم الأخوان المسلمين، كثيرون هم الذين آمنوا بالإسلام عقيدة وفكرًا، حتّى أن البعض منهم أحزابًا وجمعيات وشخصيات لا يتبنون الإسلام ومنهج الإسلام، هؤلاء أيضًا يرون كذلك. وهذا يدلّ على أنّ الأمّة الإسلامية بدأت تستعيد شخصيتها وهويتها بعد ضياع عاشته، وراحت تتجه برمّتها هذا التوجّه.

إن أهمّ خطوة قامت بها الإمبريالية تجزئة الوطن الإسلامي الكبير إلى بلدان صغيرة ذات توجّهات وطنية ضعيفة، وأمّا الوطن الإسلامي الكبير فأهمل أمره.

وبذلك استطاع الاستعمار أن يحطّم صرح الوحدة التي بناها الإسلام العزيز، الوحدة التي لا يعرف فيها للعنصر والدم واللون واللغة أيّ وزن وأيّ قيمة، فالجميع يرفع شعارًا واحدًا.

ولم يكن للإمبريالية أن تلعب غير هذه اللعبة لعبة التجزئة، وذلك لأنّها لا تستطيع أن تبتلع هذا الكيان الإسلامي الضخم والمتوحّد، ولكن عندما راحت تعزف على نغمات القومية انفرط عقد الأمة، وأضحت لقمة سائغة لكل من يشتهي ويريد.

ثم إنّ كلّ واحد من هذه البلدان الصغيرة واجهت مشاكل وتعقيدات داخلية، فراح كلّ بلد يواجه هذه المشاكل دون أن

تكون هناك راية توحّدهم أو قبلة تجمعهم، فاضطروا أن يواجهوا الاستعمار فرادى ووحدانًا. وقد اتخذت هذه المواجهة أنماطًا مختلفة، من قبيل: تقديم شكوى إلى مجلس الأمن، أو الاستعانة بـ«الأمم المتّحدة» أو اللجوء إلى محكمة «لاهاي» الدولية، ولم تجن من جميع ذلك إلا الفشل والخيبة. وذلك لأنّ الإمبريالية كان لها وجود قوي ومنسجم في جميع هذه المراكز. القومية هي الأداة التي استطاع الغرب من خلالها أن يخدع الشرق المستضعف، والحال أنّ الغرب ما فتئ يذكّر الشعوب الغربية بالصليبية حتّى يستنهضهم من أجل أن يواجهوا الإسلام مواجهة رجل واحد.

كلّ واحدة من هذه الدويلات تواجه تحدّيات، حيث الظلم الداخلي والمشاكل الاجتماعية، ممّا يستدعيها أنّ تفكّر في حلول لدرء هذه التحدّيات، وعادة ما كانت الحلول ناقصة وسقيمة لأنّها حلول لا تلتئم مع ظروف وطبيعة العالم الإسلامي، حلول هي في الواقع مستمدة من الفكر المادّي الذي قامت عليه الحضارة الغربية، والتي هي السبب في بروز المشكلة الاجتماعية أساسًا.

إنّ الحلول المستوردة تحت عناوين من قبيل الديمقراطية والاشتراكية وفي بعض الأحيان الشيوعية لا يمكنها أن تثمر في إطار الأجواء والظروف الإسلامية.

وماذا عن النتيجة؟ النتيجة هي ما نشهده اليوم من التفتّت والتجزئة التي يعيشها العالم الإسلامي، والتوحّد والانسجام الذي عليه العالم الصليبي. ضعف الدول الإسلامية وقوّة الاستعمار،

نهب ومصادرة ثروات وموارد الدول الإسلامية من قبل الدول الاستعمارية: بريطانيا، وأمريكا، وغيرهما. النتيجة أنظمةٌ ضعيفة وغير مستقلّة تحكم مصر والعراق ذات مواقف هزيلة.

وتدهورُ الأوضاع في داخل البلدان الإسلامية حمل المسلمين على معالجة هذه الأوضاع، فراح البعض منّا يحاول مواجهة المشاكل باسم الإسلام، والبعض الآخر باسم الاشتراكية، فيما ظهرت جماعة ثالثة تدعو بالخفية إلى الشيوعية. وفي المقابل اصطفت ثلة من البرجوازيين والإقطاعيين والرأسماليين، يحاولون إثارة الفتنة بين تلك الجماعات ليكونوا هم المستفيدين.

وبين مدّة وأخرى تصدر أصوات من هنا وهناك تردّد دعاوى تحذّر فيها من المدّ الإسلامي، وتتذر الشعب أننا إذا رفعنا شعار الإسلام فمعنى ذلك أننا جلبنا لأنفسنا عداء الإمبريالية والعالم الغربي ، وكأنّ الغرب قد سقانا قبل الآن كأس الحبّ والمودّة!

تمّ يحذّرونا خطر التقسيم في البلد الواحد، وكأننا حتّى اليوم نعمل في جبهة واحدة، ولا تتقاسمنا الأحزاب والتيّارات!

يحذّرونا أن الأوضاع ستسوء أكثر، ويذكّروننا حكم البغي على «الدولة الإسلامية» وخطر الظلم والاضطهاد، وكأنّنا اليوم نعيش قمة الحرّية!

يحذّروننا من «علماء الدين المحترفين»، وكأنّنا اليوم لا نذوق منهم كلّ ويل ومرارة!

ولا شكّ أن جميع هذه التحذيرات هي طبول خالية، المستفيد منها هي الإمبريالية التي باتت تخاف من أن يتّحد المسلمون تحت راية الإسلام.

لقد أدرك المستعمرون أنه قبل السيطرة على أراضي وبلدان المسلمين لابدّ من القضاء على راية القرآن، لأنه إذا اهتزّت هذه الراية مرّة أخرى فسيولّي الاستعمار إلى حيث لا رجعة.

لقد أدرك الغرب أنّ الوطن الإسلامي إذا توحّد فسيحصل على موقع ممتاز، سواء من الناحية السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية، فالغرب يعلم مدى وفرة الموارد المادية والإنسانية الموجودة في العالم الإسلامي، كما يدرك تمامًا كيف أنه إذا اجتمع مائة مليون إنسان تحت راية واحدة وفي ظلّ عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد فستتغيّر معادلات القوى لصالح هؤلاء.

وواضح أنّ المعسكرين الشيوعي والرأسمالي يخافان من ذلك اليوم الذي يمسك فيه الإسلام بمقاليد الحكم، حيث سيقضي على الأسس الاقتصادية التي تنتج الربا والاحتكار والاستغلال اللامشروع، ليقيم على أنقاضه الأسس الإسلامية التي لا مجال فيها للمتحكرين والمستغلّين والمرابين.

كما يدرك الغرب جيّدًا أنه لو قُدّر للإسلام أن يحكم ، فإن مساحات شاسعة من العالم من السواحل الأطلنطية وحتّى شواطئ المحيط الهادئ ستتحرّر من قبضة الهيمنة الغربية، وستبوء مخطّطاتها الاقتصادية بالفشل. وكما تحرّرت دول المعسكر الشرقي بنحو من الأنحاء من سيطرة العالم الرأسمالي، فإن بلدانًا أخرى سوف تتحرّر، وسيفقد العالم الرأسمالي جزءًا من نفوذه، وتنحسر حدوده الجغرافية إلى ما هو أقلّ ممّا عليه اليوم.

لو أنّ العالم الإسلامي خرج عن دائرة نفوذ الرأسمالية الغربية

فأيّ شيء يبقى لها؟ لا شكّ أنّ الغرب سيصاب بالخناق وسيسقط بالكامل.

من هنا بالذات فإن الإمبريالية تخشى من حاكمية الإسلام، وتخاف أن يخرج العالم الإسلامي من غفلته ويهبّ للقضاء على الرأسمالية.

وأمّا الشيوعية فهي تخاف على كيانها لأنها تعي جيّدًا أنّ استمرار حياتها في العالم مرتهن بوجود المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، أمّا في المجتمع الذي يتمتّع باستقرار وتوازن في القوى الاقتصادية، لا تحتكر فيه الثروات ولا تستدرّ الأرباح الطائلة، ولا أثر للربا والاستغلال، ولا توجد علاقات ظالمة بين العمّال وربّ العمل، بل هناك علاقات صحيحة وطيبة، فلا يمكن ـ والحال هذه ـ للشيوعية أن تحيا في مثل هذه الأجواء، بل سيؤول أمرها إلى الزوال.

إذا قُيض للإسلام أن يقيم مجتمعه على أصوله ومرتكزاته الصحيحة فسوف نحصل على مجتمع خال من الطبقية، وذلك لأنه لا يوجد أيّ تضاد أو صدام بين مصالح العمال ومصالح الأثرياء وأصحاب رؤوس الأعمال. العمّال لهم حصّة من الأرباح، ولهم الحقّ أن تكون لهم بعض أسهم في المعمل أو الشركة في هكذا مجتمع، فيضحى الإسراف والبخل حرامين ومبغوضين. والمجتمع الذي تُدخر فيه الثروات والخيرات، لانعدام الربا والاحتكار والظلم في أجور العمل، فهو مجتمع متوازن باعتبار أنّ الحكومة ملزمة بأنه متى ما اختلّت موازنات الثروة فإنّها سوف

تسعى لرفع الاختلال هذا من خلال إبداع أساليب وآليات تتكفّل بإعادة النظام إلى وضعه الطبيعي. في هذا المجتمع يتمّ تأميم جميع مرافقه العامّة، وتسود فيه الملكية العامّة بدلاً من الملكية الخاصّة أو الانحصارية.

فإذا أضحى المجتمع بهذه المواصفات فإن احتمال وقوعه فريسة للشيوعية احتمال ضعيف، بل غير ممكن. ومن هنا بالذات نجد أنّ الشيوعية - كما هو الحال عند الرأسمالية - تعادي فكرة الوحدة الإسلامية وفكرة قيام حكومة إسلامية، وتسعى عبر منابرها الإعلامية أن تقلّل من قيمة ومصداقية الفكر الإسلامي، وتعطي طابعًا بأنه لا مجال لتطبيق الإسلام، ولذا فهي تتّفق مع الرأسمالية في ذلك.

إلاّ أنّه وفي زحمة هذه التجاذبات والانتهاكات السافرة ها نحن ننصت لصيحات تتعالى من داخل العالم الإسلامي تدعو إلى إقامة صرح الوحدة الإسلامية وتأسيس حكومة إسلامية واحدة.

وهنا لابدّ من القول: بأنّ هذا المطلب لم يعد مطلب الإخوان المسلمين فقط، كما ليس هو مطلب علماء ومفكّري ومبلّغي الإسلام فقط، بل هو مطلب ينبع من وجدان الأمة الإسلامية وضميرها.

هاهي حكومة الباكستان تدعو إلى إقامة مؤتمر في الاقتصاد الإسلامي من أجل إعادة بناء النظام الاقتصادي العالمي على أسس وأصول إسلامية، وهذا يتّفق مع ما يدعو إليه آية الله الكاشاني الزعيم الديني في إيران، وهو يصرخ بوجه «الكلاب الإنجليزية»

أن يخرجوا لا من إيران فقط، بل من العالم الإسلامي بأجمعه. وها هو يوجّه نداءه المشجّع ونصائحه لرئيس الوزراء المصري، ويقيم تظاهرات في شوارع إيران لصالح مصر ولصالح قضيتها العادلة. وما يريده هو نفس ما يدعو إليه علال الفاسي ومحمد الوزاني في المغرب.

ونحن نعلم أنّ فرنسا عندما لم تستطع أن تجهز على المغرب (مراكش) في عام ١٩٣١م، راحت تعمل على القضاء على الوازع الديني عبر أداتها ظهير البربري.

إنّ ما يدعو إليه هؤلاء السادة هو نفس ما يدعو إليه أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكي بمصر في رسالته الحارّة التي أرسلها إلى آية الله الكاشاني، حيث أشار فيها إلى أنّكم - أيّها السادة - في إيران وبمدية الإسلام قد سدّدتم طعنة نجلاء إلى الشركات النفطية التي كانت تنهب ثروات البلد. إنّ هذا نفس ما كان يدعو إليه أحمد أبو الفتح في كتابه *حكايات*، حيث كان يدعو إلى التحرّر وإقامة حكومة الإسلام والعدل.

هذه هي الصحوة.. هي الهداية.. هي النور!

ها هو ضمير الأمة قد استيقظ.. هذه ليست دعوة فرد ما أو جماعة، هذا نداء سماوي يهبط مرّة أخرى إلى الأرض. هذه هي بوارق الأمل التي بدت تتلألأ في الآفاق بالرغم من سحب الظلام[1].

---

١ - *سيد قطب*، علي أحمدي، نقلاً غير مباشر عن مجلة *الرسالة*، العدد ٩٥١ ٢٤ ذي الحجة ١٣٧٠/ ٢٥ أيلول ١٩٥١م.

حول كتاب

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

أسد حيدر

حامد حفني داود*

- أول ما يسترعي انتباهنا في هذا الكتاب شموله وسعة آفاقه
- هذا الكتاب خليق بأن يكون أساسًا لما بعده من مؤلفات
- الروح الوثّابة التي أوجدها أهل البيت في نفوس أتباعهم كانت وراء التدفق العلمي الهائل لدى هؤلاء الأتباع على مرّ التاريخ
- المشاكل التي واجهها علي (ع) أدت إلى بعض الأخطاء في فهم هذا الشخصية الكبيرة.

منذ أكثر من عشرين عامًا استرعى التفاتي - وأنا أبحث في تاريخ التشريع الإسلامي والعلوم الدينية - الإمام جعفر الصادق سليل البيت النبوي الكريم، وما كان له من شخصية عظيمة في الفقه الإسلامي، ومنزلة لا تجارى في عالم الفكر العربي ، وفي الجانب الروحي بصفة خاصة، فوضعت في ذلك الوقت بحثا تناولت فيه جوانب من سيرته وعلمه ، ومنهجه الفكري والفقهي، واستغرق ذلك مني قرابة ثمانين صفحة ثم عرضت الفكرة على أستاذنا المرحوم عبد الوهاب عزام وهو من النفر القليل المشهود لهم

* - أستاذ جامعي مصري.

في نظري بالقدرة على الجمع بين أخلاق القدماء ومناهج المحدثين، ولكن الأستاذ الوقور لم يكد يسمع بعنوان البحث حتى علت وجهه السمح بسمة خفيفة ، فهمت منها كل شئ . . .

فهمت أن هذه الشخصية - على الرغم مما تمثله من مكانة عظيمة- هي مما يهم علماء الشيعة أكثر مما يهم علماء السنة ، ولو كان ذلك البحث في مجال الجامعة ، التي يحب أن تكون أرحب صدرًا مما تدعو إليه الطائفية المذهبية من تخصص ، أو تفرضه البيئة من مخططات محدودة ضيقة في مجال الفكر .

خامرتني هذه الفكرة أمدًا طويلاً ، وكدت أن أعيش فيها وأخرج بها إلى الناس في كتاب خاص ، أرادت أن يكون عنوانه (جعفر الصادق : إمام العلماء الربانيين وأول المبعوثين من المجددين).

وعلى الرغم من كثرة ما كتبت وما حصلت من مراجع حول هذه الشخصية العظيمة منذ عام ١٩٤٣ ـ فإن الدوافع البيئية والوجدانية لمن يعيشون حولي كانت تردني إلى الوراء وتحملني على اليأس أكثر مما تحملني على الكتابة والانطلاق في الموضوع .

وقد ضاعف من الزهد في إتمام ما بدأت ما قرأته من أبحاث مهلهلة هنا وهناك حول شخصية هذا الإمام ، فطويت صحائفي وتركت الكتابة ، وتأبيت على التعليق والرد .

ولكن يأبى الله سبحانه إلا أن يظل الحق حقًا ، وأن تكون

قوته فوق طاقات الزمان وحواجز المكان، وهكذا بعد عشرين عامًا قضت أثر انقطاعي عن الكتابة حول هذه الشخصية الفذة، تخللتها ألوان من التخطيط المنهجي ، وصور من الكتابات التي لا تقوم على أساس علمي ، طالعتنا الأقدار التي تأبى إلى أن تضع الحق في نصابه بمن يميط اللثام عن وجه الحق سافرًا ، ويحمل السحب على الانقشاع بعد الذي طال من تلبد كان هذا الفتح الجديد في دراسة الإمام منذ عشرة أعوام حين خرج إلينا الباحث الأديب والعالم العراقي الحصيف الأستاذ أسد حيدر بالجزء الأول من كتابه *الإمام الصادق والمذاهب الأربعة* والذي ثم نشره على ما يبدو في مقدمة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م ، فكان هذا الكتاب الجامع إيذانًا بإنهاء مرحلة التخطيط حول سيرة الإمام الصادق ، كما كان نقطة الانطلاق التي عرفنا من وراثها الكثير عن تاريخ «المذهب الجعفري » ، وما بينه من المذاهب الفقهية الأربعة من صلات وروابط يجهلها الكثيرون من علماء هذه الأمة على الرغم مما حصلوه من ثقافات تاريخية وفقهية وفلسفية .

وأول ما يسترعي التفاتنا من هذا السفر الضخم شموله وسعة آفاقه واستيعاب أكثر جوانب هذه الشخصية العظيمة ، ولعل ذلك راجع إلى سعة اطلاع المؤلف ، فلا يكاد يرى رأيًا لصاحب رأي حول شخصية الإمام إلا وأتى به ، ولا قضية تتصل بالموضوع من قريب أو بعيد إلا وساقها وناقشها في أسلوب أدبي أقرب ما

يكون إلى الموضوعية والنهج الفني وأبعد ما يكون عن التحيز المسف والتعصب الأعمى .

وفي كتاب المؤلف واسترسالاته التحليلية حول هذا الموضوع نلمس اتزان العالم الحصيف حين يهرع إلى كلمة ويفر بنفسه عن كل ما يشوه هذه الكلمة وإن من يقرأ صدر الجزء الأول من كتابه : *الإمام الصادق والمذاهب الأربعة* يقف على عجالة دقيقة في الخلافة الإسلامية، أرسلها المؤلف واضحة المعالم سافرة الأركان ، يقرأها القارئ فيخيل إليه أنه يعيش في هذه الحقبة من التاريخ. إن هذا الأسلوب العلمي في علاج التاريخ الإسلامي خليق بأن ينال النقاد الحظوة من التقدير ، وخليق بأن يكون أساسًا لما بعده من مؤلفات، إننا في حاجة إلى دراسة التاريخ دراسة علمية ، وفي حاجة أشد إلى دراسة المذاهب السياسية والفقهية في صورة أعمق مما وصل في أيدينا لنقول للمحق أحققت وللمخطئ أخطأت ، وتشتد حاجتنا إلى هذه الدراسة حين نعلم عن يقين لا يقبل الشك القدر الذي لعبته السياسة الأموية والسياسة العباسية في تصوير المذاهب الفقهية ، وحين نعلم عن يقين لا يقبل الشك مدى ما أصاب الشيعة من عنت ، واضطهاد في ظل هاتين الأسرتين الحاكمتين خلال ثمانية قرون كاملة

إن هذا الإحياء الصادق الذي يقوم به علماء الشيعة في صرح الثقافات الإسلامية يعتبر في نظري إنعكاسًا لهذه الثورة النفسية التي أشعلت نيرانها السياسية الأموية والعباسية في نفوس شيعة

الإمام علي والأئمة من بعده. ولقد كان اضطهاد هذه الشيعة بالقدر الذي خامر أعماق الإيمان واستقر في النفوس، بحيث توارثه هؤلاء الشيعة في معارج التاريخ كلها وامتزج منهم بالدم واللحم امتزاج الإيمان الصادق في نفوس المؤمنين، فالشيعة من هذه الناحية بالذات مؤمنون عقائديون ، وليس إيمانهم من هذا النوع العميق ، والمسلك العقائدي الذي يحياه الشيعة في كل قرن هو وحده سر هذا النشاط الملحوظ في دعوتهم ، وهو أيضًا سر الانبثاقات المتلاحقة في مؤلفاتهم ، وهذا الطريق الذي نلمسه في كتاباتهم .

ولو شئنا أن ننصف المؤلف فيها كتبه عن *الإمام الصادق والمذاهب الأربعة* لاستوعب ذلك منا مجلدًا ، فقد أصدر المؤلف من هذا الكتاب ستة أجزاء كاملة مهد في أولها للتاريخ الإسلامي والأدوار التي لعبها في خلق الأحداث المؤثرة في كيان المذاهب الفقهية، وكيف كانت حياة الإمام الصادق منها ، وأين كان يقف المذهب الجعفري ، ثم مدى تأثيره في المذاهب الأربعة ومدى ما بينه وبينها من خلافات أكثرها في الفروغ ، وقليل منها في الأصول، نعم لو أردنا أن ننصف المؤلف فيما أطرف به مكتبة التاريخ ، وفيما أطراف به مكتبة الفقه لاستوعب منا ذلك قرابة المجلد الكامل . . ولكننا نكتفي من هذا القدر العظيم بالإشارة السريعة التي ترسم بعض معالم هذه الصورة العلمية عن الإمام الصادق ، معبرين فيها عن مشاعرنا إزاء هذا النهج القويم الذي سلكه المؤلف في سفره الضخم .

ولعل أروع ما يستوقف النظر ويطمئن الناقد على ما بلغه المؤلف من توفيق في هذا الكتاب إرساؤه القواعد في مشكلة الخلافة التي أشرت إليها آنفا ، وأنا في هذا الصدد أوافق المؤلف أن المشكلة بدأت في خلافة عثمان حين انتهز بنو أمية خلافته فعبثوا بمصائر البلدان الإسلامية ولكني كنت أود أن يبدأ حديث الخلافة ومشكلتها في الصور الجذرية التي بدأت بانتقال الرسول صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى .

وقد أنصف المؤلف تاريخ الإمام (علي) حين صور المشاكل التي كانت تحيط خلافته من خروج أم المؤمنين (عائشة) إلى مؤامرات (معاوية) وعبثه بشخصيتين كبيرتين هما : (طلحة) و (الزبير) حين بايعهما لا لذاتهما ولا لسبقهما في الإسلام ، ولكن ليجعل منهما جسرًا لمعارضته وموضوعًا لبث أهوائه الشخصية ، إلى غير ذلك من المطالبة بدم عثمان ، وعلي برئ من هذا الدم .

وقد كانت هذه المشاكل من الكثيرة بالقدر الذي استعصى على فلاسفة التاريخ من عرب ومستشرقين ، فأخطأوا فهم شخصية (الإمام علي) ونزعوا عنه صفة السياسة واكتفوا بوصفه بالورع والزهد ، ولكن اجتهاد الإمام عليه السلام ونزوعه الشديد إلى منهج التوفيق بين الورع في الدين والصراحة في السياسة كان فوق مدارك هؤلاء المؤرخين. وكم كنت أود أن يشير مؤرخنا البارع إلى مهاترات المستشرقين، وضحالة تفكيرهم في إدراك معنى (التكامل النفسي) كما أسميه في شخصية (الإمام علي) وهو القدر الذي أخطأ فيه (جولد تسيهر) وغيره. ونحن نرى أن انتصار معاوية على الإمام إنما هو صورة من صور

الثأر والتآمر التي نزع إليها الشرك بعد أن غلبه الإسلام ، فيه على حد تعبيرنا قصاص المتمسلمين وأدعياء الإسلام من المسلمين المؤمنين حقًا . . وهم الذين قتلوا آباءهم وأجدادهم من أجل الحق وإعلاء كلمة الإسلام، ولا أحب أن أطيل في التعليق على هذا الكتاب القيم الذي أعتبره دائرة معارف عامة وموسوعة قيمة في تاريخ المذهب الجعفري و المذاهب الفقهية لا غنى للباحثين عنه وأوثر في ختام هذه الكلمة أن أنوه بما كتبه المؤلف عن محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه في الحديث، وقد لاحظت في تعليق المؤلف على (البخاري) جانبين : جانب موضوعي وهو الذي تناول فيه المؤلف الأحاديث الموجودة في هذا الصحيح كما تناول أسانيدها ورجالها، وجانب اجتهادي تحدث فيه المؤلف عن انصراف البخاري عن الأحاديث التي تروي في فضائل بيت النبوة .

أما الجانب الأول فنحن فيه على اتفاق تام ، ذلك لأن أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم تدون في حياته إلا ما روي عن صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن ثم لا بد من أن يخضع الحديث سندًا ومتنًا للنقد النزيه ، فما وافق منه القرآن الكريم ، وروح السيرة النبوية العطرة ، جزمنا بصحته ، وما كان بعيدًا عنهما صار موضع نظر ، وهنا يأتي فقط الخلاف بين نقاد الحديث .

وأما الجانب الثاني وهو الذي يتلخص ظاهرًا في إعراض البخاري عن الأحاديث المروية عن أئمة آل بيت النبوة فإني أرى فيه رأيًا لا ألزم فيه أخي المؤلف ذلك أن هذا الإعراض عن أحاديث هؤلاء السادة هو من أفعال القلوب التي لا تستطيع الحكم عليها

إلا بعد الاستقصاء التام ، وكما نستطيع أن نقول : إن إعراضه عن الأحاديث المروية عن الأئمة كان آتيًا بدافع عدم التوثيق ، نستطيع - بلا شك ولا ريب - أن نقول : أنه امتنع عن روايتها خوفًا وفرقًا من حكام العباسيين الذين كانوا يناصبون آل محمد العداء وهو يعلم أنه لو روى عنهم لأهمل كتابه في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو لقضي عليه وقبر وهو في مهده .

فإذا كانت الشجاعة الأدبية قد تخطت الإمام البخاري فيما يتعلق بأحاديث فضائل آل محمد . . فإن ذلك لا يقضي على ما بذله من جهد ، ولا أقل من أن يقال في هذا الصدد : أنه اجتهد وأخطأ ، ولعل إهماله لهذا الجانب من الأحاديث كان درءًا لما يخشاه من سطوة الحاكم ، فاكتفى من ذلك أن يقر بقلبه دون المشافهة باللسان والتسجيل بالقلم، وذلك ما يطابق أضعف الإيمان. هذا إن ثبت خوفه من حكام ذلك العصر، وإلا فإننا لا نستبعد أنه حاول الرواية عن رجال البيت النبوي ، واستعصى ذلك عليه بسبب ما كان يضربه الحكام حول أفراد هذا البيت من سياج منيع ، ليحولوا بينهم وبين اتصال طلاب العلم بهم ، ونحن نعرف مدى اضطهاد الحكام لهم و حقدهم عليهم وقصارى القول فإن إغفال البخاري لهذه الأحاديث لا يضعف من شأنها ولا ينقص من قدرها وقد رواها أصحاب السنن ، كما أن ذلك علميًا لا يصبح دليلا قاطعًا على موقفه من الأئمة (رضوان الله عليهم) وإني لأرجو الله سبحانه أن يؤاتينا فنتصفح ما فاتنا من صفحات هذا الكتاب القيم ، متمنين لمؤلفه العلامة الأستاذ أسد حيدر التوفيق والسداد في إتمام ما بدأ ، وإنا لمنتظرون .

كلمة الشيخ عبدالمجيد سليم

بعد توليه منصب مشيخة الأزهر

• لقد عشت طول حياتي معنيًا بأمر المسلمين مفكرًا فيما يصلحهم • الإيمان بالشيء أساس حبه والرغبة فيه • لينس المسلمون ما بينهم من خلافات أوهنتهم • التفاهم أحسن ما يمكن أن يزيل الخلاف بين المسلمين • رسالة جماعة التقريب تلتقي مع رسالة الأزهر.

رغبت *رسالة الإسلام* إلى الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر أن يوجه إلى العالم الإسلامي حديثًا على صفحات أول عدد من عامها الثالث، وأول عدد يصدر بعد تقلد فضيلته منصب مشيخة الأزهر وأهدافه إن شاء الله.

وهذا حديث فضيلته:[1]

أرجو أن تنقل عني *رسالة الإسلام* لجميع المسلمين أني أشعر شعورًا صادقًا بآلامهم وآمالهم، وأنني، وقد توليت منصبي هذا، أعد نفسي قد حُمِّلت أمانة غالية دقيقة، لا شك أني مسؤول عنها أمام ربي،

١- *رسالة الاسلام*، العدد ٩، ص ٢٢.

وأسأله تعالى أن يهبني من لدنه عونًا ييسر صعابها، ويذلّل عقابها، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

لقد عشت طول حياتي معنيًا بأمر المسلمين، مفكرًا فيما يصلحهم، وينقذهم مما تورطوا فيه من الضعف والتخاذل والانحراف عن الصراط السوي في العلم والعمل، فوجدت ألا سبيل إلى ذلك إلا بأمرين:

أولهما: أن يؤمنوا إيمانًا عن بينة وبصيرة، بأنه لا صلاح لهم إلا بهذا الدين الذي صلح به أولهم، وأنهم على حسب ما ينحرفون عن تعاليمه ومبادئه يصابون في بلادهم وأنفسهم وسائر أحوالهم بالضراء وألوان الشقاء.

وثانيهما: أن ينسوا أحقادهم وميراث عدواتهم الذي أورثتهم إياه عوامل الضعف، وعهود الذلة والخوف وتسلط الأعداء، فيعودوا كما تركهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمة واحدة عزيزة كريمة تشعر بعزتها وكرامتها، ولا غرض لها إلا إعلاء كلمة الله، ونشر دينه، والدفاع عن الحق حيثما وجدت لذلك سبيلا.

***

إن المسلمين إذا آمنوا حق الإيمان بالأمر الأول، استقر في قلوبهم حب دينهم وحرصوا على أن يسلكوا سبيله في حياتهم، وأن يسيروا على خطته ومنهاجه السديد في كل شؤونهم، فإن الإيمان بشيء ما، هو أساس حبه وتوجه الرغبة إليه، والحب الصادق يملك على صاحبه جوارحه وأعماله كما يملك قبله وعواطفه، وعلي هذا الأساس انتصر الإسلام في أوله، فقد شرى المؤمنون أنفسهم وأموالهم لله، وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما من المال والولد والنعمة والمتاع، ولولا ذلك ما استقام لهم أمر، ولا تمكنوا ـ وهم القلة الضئيلة الهزيلة

المستضعفة ـ من السيطرة على أكبر الأمم في أقصر زمن عرفه التاريخ لأمة ناشئة ناهضة.

وقد سجل الله تعالى هذه الحقيقة في قوله جل شأنه: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

فبين بهذا القول الصريح أن أساس الإيمان هو إيثار الله ورسوله على كل ما سواهما بالمحبة الخالصة الصادقة، وأن إيثار شيء عليهما فسق وخروج على أمر الله، لا يهدي الله أصحابه، بل يجعلهم في موضع المتربص المتوقع للبلاء حتى ينزل به، ويأتي عليه.

والمسلمون ـ مع الأسف الشديد ـ في هذا الموضع منذ زمن طويل، فقلما نجد منهم من يؤثر الله ورسوله على شيء من متاعه الفاني ولو كان زهيدًا، ولذلك كانت حالهم هي تلك الحال التي تسر العدو، وتسوء الصديق.

والسبيل إلى إصلاح هذه الحال أن يتعاون أهل العلم والرأي في كل شعب على تعليم المسلمين دينهم تعلمًا نافعًا، وأن يظهروهم على ما في هذا الدين من محاسن ويقنعوهم بما يكفله لأهله من سعادة وقوة، وينفوا عنهم ما أدخل عليهم من خرافات وأوهام كان الركون إليها سبب ضعفهم واستكانتهم.

ولا شك أن على الأزهر في ذلك أكبر قسط، فإنه الجامعة الدينية التي تهوى إليها أفئدة المسلمين من كل صوب، والتي تضم طلابًا من مختلف أجناسهم نفروا إليها ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا

رجعوا إليهم، وقد أخذتُ على عاتقي، وشرعت ـ والله المستعان ـ في توجيه هذه الجامعة الكبرى إلى ذلك توجيهًا عمليًا صالحًا، أرجو أن يكون مبارك الثمرات على الإسلام والمسلمين إن شاء الله.

وسوف لا أدّخر وسعًا في مدّ المسلين داخل الأزهر وخارجه بعلماء صالحين مصلحين يكونون رسل الثقافة الإسلامية الصحيحة حيثما حلوا، وأساة الأرواح والقلوب أينما سلكوا، حتى نربي أمة جديدة شبيهة بالأمة الأولى التي فتح الله بها مشارق الأرض ومغاربها.

وإذا كنت أعلن ما اعتزمته وبدأته في ذلك، وأدعو إليه أبنائي الأزهريين أن يأخذوه بقوة، فإني أدعو كذلك سائر أهل العلم في مختلف الشعوب والطوائف الإسلامية أن يقوموا بما عليهم في ذلك، وأن يبثوا الدعوة للدين والعلم به في أقطارهم، ويحثوا على الأخذ بها أبناء وطنهم، حتى يكون الإصلاح عامًا، والتوجيه كاملا.

* * *

أما الأمر الثاني، وهو أمر الاتحاد وائتلاف القلوب، والغض عن كل ما يثير الأحقاد، وينكأ الجروح، فذلك أمر له فائدته الكبرى في التعجيل بالقضاء على الضعف، والتفرغ لما ينفع المسلمين ويصلح شأنهم.

إن مثل المسلمين إذا احتفظوا بخلافاتهم، وأنصتوا لداعي الفرقة والقطيعة، كمثل شعب قامت فيه حرب أهلية طاحنة، فهي تشغل أبناءه، وتستنفد قواهم، وتضيع جهودهم، وتلهيهم عن إصلاح أحوالهم، وتقويم معوجهم، وتعين عليهم أعداءهم، وتكون سببًا دائمًا في إثقال كواهلهم بما لا يحتملون من الأعباء، وفي إلباسهم لباس الذل والخوف والشقاء.

لقد ألحت هذه الحرب الأهلية الضروس على الأمة الإسلامية منذ قرون، فقطعت ذات بينها، وأفسدت كثيرًا من خطط الإصلاح على واضعيها، والداعين إليها، وما علمت حربًا كهذه نيرانها حامية، وأسبابها واهية.

فليتدبر المسلمون موقفهم، ولا سيما في هذا الوقت العصيب، الذي فغرت فيه المطامع أفواهها لابتلاعهم، والذي أصبحت القوة فيه والتكتل هي لغة التخاطب السائدة، وأسلوب التفاهم المفيد، ولينسوا ما بينهم من الخلافات التي أوهنتهم، وثبطت من عزائمهم، وليقفوا صفًا واحدًا لإنقاذ أنفسهم ودينهم، بل لإنقاذ العالم من المطامع الفاسدة، والمبادئ الخطرة، فإنهم أهل فكرة، ووراث رسالة، وإن الله سائلهم عما أورثهم.

إني لأعلم أن أحسن ما تطفأ به هذه الحرب الأهلية التي ظلت مستعرة بين المسلمين قرونًا طويلة، هو التفاهم، وأن يدرك كل شعب ما عند الآخر، ويومئذ يظهر للجميع أن أمة الإسلام متفاهمة على كل ما يكون به المسلم مسلمًا، وأن ما وراء ذلك لا يضر بالدين، ولا ينبغي أن يكون سببًا في قطع حبل الأخوة والائتلاف، وسأنظر إن شاء الله تعالى في كل ما يعين المسلمين على إدراك هذه الحقيقة، والعمل بمقتضاها، وإن رسالة جماعة التقريب في ذلك لتلتقي مع رسالة الأزهر، الذي يرى حقًا عليه أن يبصر الأمة الإسلامية بأمرها، ويرشدها إلى ما يجب أن يقوم عليه شأنها من المودة والتراحم والألفة، وتبادل العلم والمعرفة.

أسأل الله أن يهيئ للمسلمين من أمرهم رشدًا، وأن يوفق قادتهم وزعماءهم إلى النجاة بهم من العواصف والأنواء، إنه سميع مجيب.

التخلف الاقتصادي

في العالم الإسلامي

• التطور الاقتصادي لا يعني تجمّع الثروة • النصوص الدينية تحثّ على الحركة والعمل • الدين يعطي للعمل الاقتصادي نفسه قيمة سامية بغض النظر عن معطياته المادية • الكسل حالة نفسية تضعف همّة الإنسان عن طلب مبتغاه • سجّل التاريخ الإسلامي في عصوره الأولى صورًا رائعة من تفاعل الإنسان مع الطبيعة • الحديث عن أمجاد الماضي يجب أن تكون ضمن خطة شاملة لاستئناف مسيرة الحضارة الإسلامية.

لا يرتبط هذا الموضوع بعلم الاقتصاد، بل يُعالج مسألة حضارية، وينظر إلى الاقتصاد من منظار حضاري، أو من منظار مذهبي حسب تعبير الشهيد الصدر الّذي يقسّم الدراسة الاقتصادية إلى علمية ومذهبية. الأولى ترتبط بمعادلات لا يختلف فيها العلماء، والثانية ترتبط بالأساس الّذي تقوم عليه حضارة الإنسان، وهذا الأساس هو نظرة الإنسان إلى الكون والحياة، وفي هذا اللون الثاني جرى الاختلاف بين المدارس الفكرية، وأدى إلى ظهور مدارس اقتصادية مختلفة في التأريخ.

والمسألة الاقتصادية تحتلّ دورًا مهمًا في دراسات المهتمين

بقضايا العالم الإسلامي، لما يعاني منه المسلمون من تخلف اقتصادي وفشلٍ في خطط التنمية الاقتصادية رغم وجود ثروات متراكمة في المنطقة الإسلامية.

والتطور الاقتصادي لا يعني طبعًا تجمّع الثروة، لأن العالم الإسلامي – كما ذكرنا – متخلف اقتصاديًا رغم تراكم ثرواته، بل المقصود به ربط الإنسان بالطبيعة ربطًا يستطيع من خلاله أن يحقق نموًا اقتصاديًا، ويجعل المجتمع ذا بنية اقتصادية قوية تُغنيه عن التطفل على غيره من البلدان واستجدائها.

تناول المهتمون بقضايا العالم الإسلامي مسألة التطور الاقتصادي والتنمية الاقتصادية من وجهة النظر المذهبية، وحاولوا أن يستكشفوا الأسباب الحضارية للتخلف القائم بين المسلمين. يرى كثير من الباحثين الغربيين أن هذا التخلف الاقتصادي يعود إلى روح التوكل واحتقار المادة والاستسلام للقدر والاعتماد على الفرص، والعجز عن الخلق والإبداع الموجودة بين المسلمين.

يؤيد هذه النظرة الوضع القائم في العالم الإسلامي بكل ما يحيطه من تخلف في جميع مناحي الحياة، وما يدبّ فيه من ضعف وهوان، وما تعجّ به الثقافة الشعبية المعاصرة من روح كسل وبَطَر ولا مبالاة.

ويقف الباحثون المسلمون مدافعين عن الإسلام تجاه هذه الدعوى بأساليب مختلفة:

١ـ أسلوب الاستدلال بالنصوص الدينية:

لا يخفى على باحث في الإسلام أن المسلمين ينظرون إلى النصوص الدينية في القرآن والسنة على أنها منهج لتنظيم أمور حياتهم في كل المجالات الخاصة والاجتماعية، والإنسان المسلم يرى نفسه مسؤولاً أمام الله في تطبيق هذه النصوص وتنفيذها بدقة. ومن هنا فان لهذه النصوص دورًا مهمًا في صياغة حركة الإنسان وروابطه بالمجتمع والطبيعة. ومن حق الباحث أن يعود إليها ليرى كيف وجّه الإسلام أبناءه في حقل التنمية الاقتصادية.

في هذه النصوص نرى تأكيدًا على أن ما في الأرض من نِعَم مادية إنما هي من عطاء الله للإنسان، فهي كلها إذن خيرات مصدرها الخير المطلق سبحانه، والإنسان المسلم بطبيعة تربيته يطلب الخير.

قال سبحانه: ﴿.. وأمددناكم بأموال وبنين...﴾.

﴿ويُمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارًا﴾.

وقال: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا﴾.

﴿... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس...﴾.

﴿ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش...﴾.

﴿والأرض وضعها للأنام﴾.

كما نرى في نصوص الكتاب العزيز حثًّا على ابتغاء فضل

الله والحركة من أجل استثمار مواهب الطبيعة:

﴿فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله...﴾.

﴿وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم...﴾.

وثمة نصوص تربط بين «الخبز» وهو رمز الوفرة الاقتصادية والاكتفاء الذاتي في لغة هذه النصوص وبين حياة الدين واستمرار مسيرة الإنسان الروحية نحو الله. فعن النبي(ص): «اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرّق بيننا وبينه»، وعنه(ص): «فلولا الخبز ما صلينا..» وعنه: «فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا».

والنصوص الدينية – من جهة أخرى – تحثّ على العمل، وتجعل الحركة في طلب الرزق عبادة والإهمال والكسل مفسدة وعبثًا، قال سبحانه: ﴿... هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..﴾.

وعن رسول الله(ص) أنه قبّل يومًا يَد عامل وقال: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة. ومن أكَلَ من كَدِّ يده مرّ على الصراط كالبرق الخاطف. ومن أكل من كدّ يده نظر الله اليه بالرحمة ثم لا يعذبه أبدًا. ومن أكل من كدّ يده حلالاً فتح له أبواب الجنة يدخلها من أيها شاء»، وفي الحديث الشريف: «ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلاّ كانت له به صدقة».

وتذهب النصوص إلى إعطاء العمل الاقتصادي نفسه قيمة

سامية بغض النظر عن معطياته المادية. ففي الحديث: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم الفسيلة فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها».

ويتحدث صادق أهل البيت جعفر بن محمد(ص) للمفضل بحديث يبيّن فيه أن سنة الحياة تقتضي الحركة من أجل الإنماء الاقتصادي وإلاّ فان المجتمع يسقط في فراغ يتبعه عبث وفساد فيقول: «واعلم يا مفضل .. وجعل (الله) الخبزَ متعذرًا لا يُنال إلا بالحيلة والحركة، ليكون للإنسان في ذلك شغل يكفّه عمّا يخرجه إليه الفراغ من الأشَرِ والعبث.».

وتقرنُ بعض النصوص الفقرَ بالكفر، وهذا يعني أن الأمة الفقيرة، أي الأمة الّتي تفتقد الحركة لاستثمار مواهب الطبيعة، هي أمة لا تصلح أن تكون مؤمنة. فالإيمان يتقضي الحركة على طريق الغني المطلق سبحانه، فعن النبي(ص): «كاد الفقر أن يكون كفرًا».

وروى الصادق(ع) عن النبي(ص) أنه نادى الصلاة جامعة. فاجتمع الناس، فصعد النبي(ص) المنبر، فنعى إليهم نفسه فقال: «أذكّر الله الوالي من بعدي على أمتي.. ولم يُقرهم فيُكفرهم».

والنهي عن الكسل والتكاسل في طريق طلب المعيشة وردت فيه نصوص كثيرة، وكلها تدعو إلى حركة دائبة على طريق تحسين الوضع الاقتصادي الفردي والاجتماعي. من ذلك: قول الإمام علي(ع): «إن الأشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتج بينهما الفقر».

فالكسل حالة نفسية تُضعف همّة الإنسان عن طلب مبتغاة، ويقترن بها العجز عن بلوغ الغايات في الواقع العملي. ونتيجة كل ذلك الفقر، الفقر في كل ما يحتاجه الفرد وتحتاجه الجماعة لمواصلة مسيرة الحياة بعزّة وكرامة.

وعن الإمام الصادق(ع) قال: «لا تكسلوا في طلب معايشكم فان آباءَنا قد كانوا يركضون فيها ويطلبونها».

والنصوص في كل هذه المجالات كثيرة جدًا. وأختتمُ هذا الاستعراضَ بنص رائع عن أمير المؤمنين علي(ع) فيما رواه الصادق قال: «من وجد ماءً وترابًا ثم افتقر فأبعده الله». أي إن من طبيعة الإنسان المسلم الّذي يسير في طريق الكامل المطلق سبحانه أن يستثمر مواهب الطبيعة ويتفاعل معها. فالماء والتراب رمزان لهذه المواهب الطبيعية. ولا يمكن أن يتوفر «الماء» و«التراب» و«الإيمان» ثم يفتقر الإنسان. وإذا توفر العنصران الأولان ثم افتقرَ فلابد أن يكون الخلل في العنصر الثالث.

هذه النصوص أسهمت بدون شك على مر العصور في صياغة ذهن الإنسان المسلم، وجعلته يتعامل مع الطبيعة تعاملاً فاعلاً وفق معايير الإسلام، وكانت وراء ما شهدته الحضارة الإسلامية من ازدهار في عصورها الذهبية.

وإذ نحن في صدد استعراض النصوص لابدّ أن نشير إلى بعض الروايات الّتي تنظر إلى التعامل مع المادة والحياة نظرة سلبية، وتحثّ الإنسان المسلم على ترك حبّ الدنيا نظير قول

الرسول(ص): «من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته».

وعن الصادق(ع) : «رأس كل خطيئة حبّ الدنيا».

وعن الصادق(ع) أيضًا: «أبعد ما يكون العبد من الله عزّوجل إذا لم يهمّه إلاّ بطنه وفرجه».

وعن أمير المؤمنين علي(ع): «إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا».

هذه النصوص يمكن أن نفهمها في ضوء النصوص السابقة على أنها دعوة للكف عن الشَرَه والتكالب والصراع في التعامل مع مواهب الطبيعة، ودعوةٌ إلى التعامل مع المادة وفق أخلاقيات الإسلام الإنسانية، لا وفق ما تفرزه طبيعة هذا التعامل من استئثار وشح وحرص واكتناز. إنها دعوة لان يكون الإنسان – وهو يتعامل مع المادة – سيّد هذا الكون، والمتحكّم في المادة في مسير استثمارها.

٢ - أسلوب استعراض التأريخ الإسلامي:

سجّل التأريخ الإسلامي، في قرونه الأولى – بشكل خاص – صورًا رائعة من تفاعل الإنسان المسلم مع مواهب الطبيعة، ففجّر الأرض واستثمرها وساحَ فيها واكتشف معالمها، وتطلّع إلى السماء، وتعرّف على مواقع نجومها، وركّب المواد وشخّص خصائصها، وغار في داخل جسم الإنسان وفهم طبيعة فسلجة أعضائه، وتعرّف على دائه ودوائه، ومارس عمارة المدن والطرق

والجسور والسدود فأبدع فيها، ولم يمض على عصر صدر الإسلام زمن طويل حتى شهد العالم الإسلامي حضارة يشهد على عظمتها علماء الغرب ويقفون أمامها وقفة احترام وإجلال.

ومن المستشرقين الّذين ألّفوا في هذا المجال جورج سارطون في كتابه: *الثقافة العربية في رعاية الشرق الاوسط*، وكتابه: *تأريخ العلم القديم في العصر الذهبي*، وجويدي في كتابه: *علم الشرق وتأريخ العمران*، والدوميلي في كتابه: *العلم عند العرب*، وكارلونالينو في كتابه: *علم الفلك – تأريخه عند العرب في القرون الوسطى*.

وممن كتب في هذا المجال أيضًا: قدري حافظ طوقان في كتبه: *العلوم عند العرب*، و*تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك*، و*التفكير العلمي عند العرب*، و*أثر العرب في تقدم الفلك*. وجرجي زيدان في كتابه: *تأريخ التمدن الإسلامي*، ومحمد كرد علي في كتابه: *الإسلام والحضارة الغربية*، وغيرهم كثير.

وهنا أودّ أن أقف عند ملاحظتين على هذا الأسلوب:

الأولى: أنها ركزت – سواء من قبل المستشرقين أو من قبل أكثر العرب – على دور «العرب» في بناء الحضارة الإسلامية، لا «المسلمين»، وهذا التركيز لا أظنه عفويًا، كما لا أحسن الظن فيه فأقول: إن المقصود بالعرب كل من تكلم العربية من المسلمين، فالنزعة القومية واضحة في هذه الأبحاث، وأعتقد أنها جاءت ضمن الموجة الّتي خطط لها الغرب وسار ضمنها العالم

الإسلامي في جعل الأطروحة القومية مكان الطرح الإسلامي، ومن ثم جعل الدويلات الّتي نشأت بعد اتفاقيات التقسيم تتغنى بأمجادها وتسكر على أنغام ذكريات ماضيها من دون أن تتقدم خطوة في مضمار الحضارة، ثم إن سلخ هذه الحضارة عن الإطار الإسلامي يبعد أذهان المسلمين عن الطاقة المحركة الهائلة الّتي أوجدت هذه الحضارة في الماضي ويمكن أن توجدها في المستقبل.

الثانية: إن الحديث عن أمجاد الماضي يجب أن يكون ضمن خطة شاملة تستهدف دفع المسيرة الاجتماعية نحو الحركة، عندئذ سيكون مثل هذا الحديث قادرًا على منح الفرد المتحرك ثقةً بنفسه وقدرةً على مواصلة الطريق من دون كلل أو ملل. أما إذا لم يكن ضمن هذه الخطة فانه يتحول إلى انتفاخ وَرَمي يبعد الأذهان عن التفكير في تخلّف الواقع الراهن وعلاج هذا التخلف.

وتحضرني هنا ملاحظة للمرحوم عباس محمود العقاد على الحروب الصليبية يذكر فيها أن الحروب الصليبية أضرت العالم الإسلامي من جهتين: الأولى: أنها أنهكت جسم العالم الإسلامي واستنزفت طاقاته وقواه المادية والبشرية، والثانية: أنها بسبب ما حققته من انتصارات عسكرية أورثت الأمة الإسلامية إفراطًا في الثقة برجحانها، وإفراطًا في سوء الظن بأعدائها، وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم إلى عدة قرون، قامت أوروبا بعدها مقام القيادة وتخلّف الشرق، وليس أخطر على الأمم من الاكتفاء بالذات، والاعتزاز بالرجحان في أمثال هذه الظروف».

والعبارة الأخيرة للعقاد صادقة في مجال التركيز على أمجاد الماضي، من دون أن ترافقه خطة نهوض وتحريك ودفع نحو الهدف المنشود.

٣ - صياغة النظرية الإسلاميّة

لكل مدرسة فكرية نظريتها الخاصة للتعامل مع الطبيعة، وهذه النظرية تشكل الأساس الّذي يتحرك عليه الإنسان والمجموعة البشرية لبناء الحضارة.

وصاغ المفكرون الإسلاميون نظرية «الاستخلاف» لتعبّر في جانب منها عن الإطار الإسلامي لتعامل الإنسان مع الطبيعة. «الإنسان بوجه عام مستخلف من الله في هذه الأرض لعمارتها واستثمار خيراتها، سلّطه الله عليها فأعطاه القدرة على تسخيرها وتسخير سائر الكون لمنافعه بما وهبه من الحواس والعقل وسائر الصفات الجسمية والعقلية الّتي تجعله أهلاً لذلك على تفاوت بين أبناء البشر».

الآيات الكريمة الّتي تستند إليها هذه النظرية كثيرة منها:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...﴾.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم...﴾.

﴿... وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه...﴾.

ووفق هذه النظرية يتحمل الإنسان المسلم مسؤولية القيام

بأعباء الخلافة في الأرض، مسؤولية الخلق والإبداع والتصرف في قوانين الطبيعة واستخدامها بقدر ما وهبه الله من قدرة، ولا يمكن لإنسان يعيش هذا المفهوم أن يظل خاملاً متواكلاً غير متفاعل مع قوانين الكون والطبيعة، وغيرَ عامل على تسخيرها على طريق تحقيق مسؤوليات الخلافة.

يقول السيد محمد باقر الصدر عن هذا المفهوم: «... ولا أعرف مفهومًا أغنى من مفهوم الخلافة لله في التأكيد على قدرة الإنسان وطاقاته الّتي تجعل منه خليفة السيد المطلق في الكون، كما لا أعرف مفهومًا أبعد من مفهوم الخلافة لله عن الاستسلام للقدر والظروف لأن الخلافة تستبطن معنى المسؤولية تجاه ما يُستخلف عليه، ولا مسؤولية بدون حرية وشعور بالاختيار والتمكن من التحكم في الظروف. وإلاّ فأي استخلاف هذا إذا كان الإنسان مقيدًا أو مسيّرًا..؟!.»

٤ - مهاجمة الحضارة الغربيّة:

حين صحا العالم الإسلامي في العصر الحديث من سباته راح يفكر في سبيل لاستعادة وجوده، لكن تفكيره كان ممزوجًا بآثار النوم الطويل وبروح الهزيمة الّتي مُني بها على يد المستعمر. وما كانت هزيمة العالم الإسلامي اقتصادية وعسكرية فحسب بل ونفسية أيضًا. ومن هنا راح – مدفوعًا بروح الهزيمة – يستجدي المناهج الغربية ليجد فيها البلسم لجراحه. وبذلك عمّق روح الهزيمة في حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وواجه الفشل

الـذريع في تطبيـق الوصـفات الغربيـة وخاصـة في مجـال التنميـة الاقتصادية. وأمام هذا الانبهار بروح الغرب اتخذ بعض المفكرين الإسـلاميين أسـلوب مهاجمـة الحضـارة الغربيـة، وأرادوا بهجـومهم هذا أن يخاطبوا الإنسان المسلم قائلين له: إن العالم بأجمعه يعيش اليوم حالة تخلف حضاري، لا العالم الإسـلامي وَحده. وهـذا اللون مـن الخطـاب يبعـد عـن المسـلمين روح الإحسـاس بالهزيمـة ويـدفعهم نحو التأصيل الحضاري في عملية التنمية الاقتصادية.

يقول سيد قطب: «إن مقياس الرقي الحضاري في نظر الإسـلام هو حين يقوم (الإنسـان) بالخلافة عن (اللّه) في أرضه على وجهها الصحيح: بأن يخلصَ عبوديته للّه ويخلص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج اللّه وحده، ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره، وأن يحكّـم شـريعة اللّه وحـدها في حياتـه وينكـر تحكـيم شـريعة سـواها، وأن يعيش القيم والأخلاق الّتي قررها اللّه لـه ويسـقط القـيم والأخـلاق المـدّعاة، ثـم بـأن يتعـرّف بعـد ذلـك كلـه إلى النـواميس الكونيـة الّـتي أودعهـا اللّه هـذا الكـون المـادي، ويسـتخدمها في ترقيـة الحيـاة، وفي اسـتنباط خامـات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها اللّه إياها، وجعل تلك النواميس أختامها، ومنح الإنسان القدرة على فضِّ هذه الأختام بالقدر الّذي يلزمه له في الخلافة.. أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد اللّه وشروطه، ويصبح يفجّر ينابيع الرزق ويصنّع المادة الخامة، ويقيم الصناعات المتنوعة، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية الّتي حصل عليها الإنسان في تأريخه كله.. حين يصبح وهو

يصنّع هذا (ربانيًا) يقوم بالخلافة عن الله – على هذا النحو – عبادة لله... يكون هذا الإنسان كامل الحضارة ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة».

وهذا يعني أن الغرب اليوم متخلف حضاريًا رغم تطوره الصناعي والاقتصادي.

ومن المفكرين من يرى أن الحضارة الغربية تعاني أزمة أخلاقية، وهذه الأزمة ناتجة عن افتقادها المقاييس الإنسانية في التوجه، ولذلك فهي غير قادرة على حل مشكلة البشرية.

يقول مالك بن نبي: «لاشك أن الآلات الحاسبة الّتي استخدمها الإنسان الحديث لتكون مقياس حضارته عجيبة رائعة، شريطة أن لا تندس حبة من الرمل بين أجزاء المحرك... إذ إن بعض حبات الرمل الّتي تسبب خطأ في الحساب قد تؤدي إلى ملايين القتلى وما لاحدّ له من الهدم والتخريب.. واحتكاك طفيف بين أجزاء الماكنة الحسابية كشف عن أزمة السرطان الأخلاقي الّذي يلتهم الحضارة، ودلل بشكل لا يقبل الشك أن النهضة الفنية وحدها عاجزة برسومها ومعادلاتها عن حلّ المشكلة الإنسانية».

ونرى في كتب الإسلاميين استدلالات كثيرة على لسان المفكرين الأوربيين أنفسهم بشأن أزمة الحضارة الغربية، كما فعل سيد قطب في كتابه: «المستقبل لهذا الدين»، حيث نقل كثيرًا عن الدكتور الكسيس كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» وعن دالس في كتابه «حرب أم سلام».

الإمام حسن البنا
والشيخ الغزالي ولمّ شمل المسلمين

• كان حسن البنا يدعو إلى الإسلام دينًا ودولة • الخلاف الديني في الفروع لا يكون سببًا في التفرق في الدين • العقيدة أساس العمل وعمل القلب أهم من عمل الجارحة • للإنسان حقوق مادية وأدبية تتناسب مع تكريم الله له • الاختلاف في الدين ليس مصدر خصومة واستعداء.

يقول الشيخ الغزالي: «لقد بدأت العمل مع حسن البنا وأنا طالب في الأزهر، من خمس وأربعين سنة تقريبًا والحالة العامة يؤمئذ جديرة بالتسجيل:

الحكم منفصل عن العلم، وهو انفصال مبكر في تاريخنا للأسف.

والتعليم قسمان مدني وديني، وهو عمل استعماري بارع لضرب الدين والدنيا معًا.

والتعليم الديني منقسم على نفسه، فالفقهاء شيء والمتصوفة شيء آخر.

والمتصوفون فرق لها رايات وشارات مختلفة.

والفقهاء توزعوا على المذاهب الأربعة، ويرفض أحدهم الصلاة وراء الآخر إلا مضطرًا.

ثم نشب خلاف زاد الطين بلّة بين هؤلاء جميعًا وبين أهل الحديث.

ودخلت الوهابية المعركة باسم أنصار السنّة، فاستعرت الحرب بينهما وبين هذه وتلك.

وولدت الأحزاب السياسية بعيدة عن الهوس الديني جاعلة الوطنية شعارها، وانقسمت هذه الأحزاب بين ضالع مع القصر الملكي ومؤيد للتيار الشعبي.

ثم تسللت الشيوعية مستغلة الفقر السائد، وعارضة ما لديها من فنون الإغراء.

وظهر مستغلون في مجال العمل السياسي، وآخرون يقصرون نشاطهم على العمل الاجتماعي وحده!!

وسط هذا البلاء والتمزق الشامل كان حسن البنا يدعو إلى الإسلام دينًا ودولة، ويتخلّص بلباقة من الآصار الموروثة والأهواء الوافدة» [1].

---

١ - *دستور الوحدة الثقافية*، ص ٨و٩.

و«وضع جملة مبادئ تجمع الشمل المتفرق، وتوضح الهدف الغائم...» [1].

يذكر الشيخ الغزالي رضي الله عنه وأرضاه مباديء جمع الشمل المتفرق الذي وضعه الشهيد حسن البنا على النحو التالي:

أصول الإمام حسن البنّا
للمّ شمل المسلمين

الأصل الأول: الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خُلُق وقوة ورحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء..!!

الأصل الثاني: القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرّف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقًا لقواعد اللغة العربية من غير تكلّف ولا تعسّف، ويرجع في فهم السنة إلى رجال الحديث الثقاة.

الأصل الثالث: للإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة والمجاهدة، نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى، ليست من أدلة

---

١ - المصدر نفسه، ص ٥.

الأحكام الشرعية.. ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

الأصل الرابع: التمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب (المستقبل) وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته .. إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة.

الأصل الخامس: رأي الإمام ونائبه فيما لا نصّ فيه، وفيما يحتمل وجوهًا عدة، وفي المصالح المرسلة، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعُرف والعادات، والأصل في العبادات التعبّد دون الالتفات إلى المعاني، وفي المعاملات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد.

الأصل السادس: كل أحد يؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم (صلّى الله عليه وسلّم) وكل ما جاء عن السلف (رضوان الله عليهم) موافقًا للكتاب والسنّة قبلناه ، وإلاّ فكتاب الله وسنّة رسوله أولى بالاتباع. ولكننا لا نعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ماقدموا.

الأصل السابع: لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إمامًا من أئمة الدين ، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرّف أدلة إمامه، وأن يتقبل كلّ إرشاد مصحوب بالدليل متى صحّ عنده صدقُ مَنْ أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر.

الأصل الثامن: الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببًا في التفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة أو بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحبّ في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجرّ ذلك إلى المراء المذموم أو التعصّب.

الأصل التاسع: كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نُهينا عنه شرعًا، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في المعاني القرآنية التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم، وما جرى بينهم من خلاف، ولكلّ منهم فضل صحبته، وجزاء نيته، وفي التأويل مندوحة.

الأصل العاشر: معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده. وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام. وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة، وما يلحق بذلك من المتشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله وأصحابه: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

الأصل الحادي عشر: كل بدعة في دين الله لا أصل لها: استحسنها الناس بأهوائهم ـ سواء بالزيادة فيه أو النقص منه ـ ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شرّ منها.

الأصل الثاني عشر: البدعة الإضافية والتركية والالتزام بهما في العبادات المطلقة، خلاف فقهي لكل فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

الأصل الثالث عشر: محبةُ الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب عملهم قربةٌ إلى الله تبارك وتعالى. والأولياء هم المذكورون في قوله سبحانه﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، في حياتهم أو بعد مماتهم، فضلاً عن أن يهبوا شيئًا من ذلك لغيرهم.

الأصل الرابع عشر: زيارة القبور أيًا كانت سنّة، وهي مشروعة بالكيفية المأثورة. ولكن الاستعانة بالمقبورين - أيًا كانوا - ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور، وسترها، وإضاءتها، والتمسح بها، والحلف بغير الله، وما يلحق ذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سدًا للذريعة[1].

الأصل الخامس عشر: الدعاء إذا قُرن بالتوسل إلى الله بأحد خلقه موضع خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة.

---

١ - كثير مما جاء في هذه الفقرة يجمع عليه المسلمون وفي بعضها خلاف بين المذاهب الإسلامية، وهو من الخلاف الديني في الفروع المذكور في الأصل الثامن (ثقافة التقريب).

الأصل السادس عشر: العرف الخاطئ لا يغيّر حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها اللفظ والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

الأصل السابع عشر: العقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعًا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

الأصل الثامن عشر: الإسلام يحرر العقل، ويحثّ على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحّب بالصالح والنافع من كل شيء «والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ الناس بها».

الأصل التاسع عشر: قد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم حقيقة صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار.

الأصل العشرون: لا نكفّر مسلمًا أقرّ بالشهادتين. وعمل بمقتضاهما ، وأدّى الفرائض برأي أو بمعصية إلا إن أقرّ بكلمة الكفر، أو أنكر معلومًا بالضرورة، أو كذّب صريح القرآن، أو فسّره على وجه لا تحتمل تأويله إلا الكفر.

الأصول العشرة الاضافية المقترحة من قِبل الشيخ محمد الغزالي[1]

١ـ النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وللنساء في حدود الآداب الإسلاميّة حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته.

٢ - الأسرة أساس الكيان الخلقي والاجتماعي للأمة، والمحضن الطبيعي للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجوّ الصالح بينهما. والرجل هو ربّ الأسرة ومسؤوليته محدودة بما شرّع الله لأفرادها جميعًا.

٣ - للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها.

٤ - الحكام ـ ملوكًا كانوا أم رؤساء ـ أجراء لدى شعوبهم، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية، ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة ، ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرها، أو يسوس أمورها استبدادًا.

٥ - الشورى أساس الحكم، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها، وأشرف الأساليب ما تمحّض لله، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغشّ وحبّ الدنيا.

---

١ - *دستور الوحدة الثقافية*، ص ١٨٥-١٨٦.

٦ - الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التي قررها الإسلام، والأمة جسد واحد لا يُهمل منه عضو، ولا تزدرى فيه طائفة، والأخوّة العامة هي القانون الذي ينتظم الجماعة كلّها فردًا فردًا، وتخضع له شؤونها المادية والأدبية.

٧ - أسرة الدول الإسلاميّة مسؤولة عن الدعوة الإسلامية، وذود المفتريات عنها، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء الخلافة في الشكل اللائق بمكانتها الدينية.

٨ - اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان أو حدثت فتنة أو ظلمت فئات من الناس.

٩ - علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنساني المجرد، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجة والإقناع فحسب، ولا يضمرون شرًا لعباد الله.

١٠ - يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى ـ على اختلاف مذاهبها ـ في كل ما يرقى ماديًا ومعنويًا بالجنس البشري، وذلك من منطلق الفطرة الإنسانية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي الأصول العشرين للإمام حسن البنا التي تبنّاها الشيخ الغزالي، وما أضاف إليها من عشرة أصول نفهم المشروع التقريبي للفقيد الغزالي وأستاذه البنا رضوان الله تعالى عليهما.

عِشْ بالشُّعورِ، وللشُّعورِ

ابو القاسم الشابي

عِشْ بالشُّعورِ، وللشُّعورِ، فإنَّما ... دنيـاكَ كـونُ عواطـفٍ وشـعورِ

شِيدَتْ على العطْفِ العميقِ،وإنّها ... لتجفُّ لو شِـيدتْ علـى الـتفكيرِ

وَتَظَـلُّ جَامِـدَةَ الجمـالِ، كئيبـةً ... كالهيكـلِ، المتهـدِّمِ، المهجـورِ

وَتَظَلُّ قاسـيةَ الملامـحِ، جهْمـةً ... كالموتِ.. مُقْفِـرةً ، بغـيرِ سـرورِ

لا الحـبُّ يـرقُصُ فوقهـا متغنّيًـا ... للنّـاسِ، بـين جَـداولٍ وزهـورِ

مُتَوَرِّدَ الوَجنـاتِ سـكرانَ الخطـا ... يهتزُّ من مَرَحٍ،وفرطِ حبورِ

مـتكلِّلاً بـالورْدِ، ينثـرُ للـورى ... أوراقَ وردِ اللَّـــذة المنضـــورِ

كـلاَّ! ولا الفـنُّ الجمـيلُ بظـاهرٍ ... في الكونِ تحت غمامةٍ من نورِ

مَتَوشِّحًا بالسِّحر، ينفُخ نايَـهُ الـ ... ـــمشبوبَ بـين خمائـلٍ وغـديرِ

أو يلمـسُ العـودَ المقدّسَ،واصـفًا ... للمـــوت، للأيـــام، للـــديجورِ

ما في الحياة مـن المسرَّةِ،والأسـى ... والسِّـــحْرِ، واللَّـــذاتِ، والتغريـــرِ

أبَـدًا ولا الأمـلُ المُجَـنَّحُ مُنْشِـدًا ... فيهـا بصـوتِ الحـالمِ، المَحْبُـورِ

تلكَ الأناشيدُ الـتي تَهَـبُ الـورى ... عزْمَ المَنَـالِ،وعَجْلَةَ العُصْفورِ

واجعلْ شُعورَكَ في الطَّبيعةِ قائدًا ... فهـو الخـبيرُ بتيهِهـا المسْـحورِ

سَحِّ الحياةَ صغيرةً وهَشِي بهـا ... بـين الجمـاجمِ، والـدَّمِ المهـدورِ

وعَدَا بهَا فـوقَ الشَّـواهِق، باسمًـا ... متغنِّيًـا، مِـنْ أعْصُـرٍ وَدُهُـورِ

والعقـلُ، رغْـمَ مشـيبهِ ووقَـاره، ... مـا زالَ في الأيّـامِ جِـدَّ صـغيرِ

يجتـاحُ.. فجـرٌ الريـاحُ.. فَيَنْتَشِي ... مُتوجِّعًـا، كالطّـائر المكسـورِ

ويظـلُّ يَسْـألُ نفسـه، متفلسـفًا ... متَنَطِّسًـا، في خفَّـةٍ وغُـرور:

عمَّـا تُحَجِّبُـهُ الكواكـبُ خلفَهـا ... مِـنْ سِـرِّ هـذا العـالَم المسـتور

وهو المهشَّمُ بالعواصـفِ.. يـا لـهُ ... مـن سـاذجٍ متفلسـفٍ، مغـرور!

وافـتحْ فـؤادكَ للوجـود، وخلِّـه ... للـيمِّ للأمـواج، للـدّيجور

للـثَّلج تنثُـرُهُ الزوابـعُ، للأسـى ... للـهَوْلِ، لـلآلامِ، للمقـدور

واترُكْهُ يقتحمُ الوطيـدَ.. هائمًـا ... في أفقِهـا، المتلبّـدِ، المقـرور

ويخوضُ أحشاءَ الوجود.. مُحاذِرًا ... في ليْلِهـا، المتَهَيِّـبِ، المحـذور

حتَّـى تعانقَـه الحيـاةُ، ويرتـوي ... مـن ثغْرِهـا المتـأجِّجِ، المسـجور

فتعـيشَ في الـدنيا بقلـبٍ زاجـرٍ ... يقـظِ المشـاعرِ، حـالمٍ، مسـحور

في نشـوةٍ، صُـوفيَّةٍ، قُدسـية، ... هيَ خـيرُ مـا في العـالمِ المنظـور